كتاب التُّبُو

الهويَّة واللغة والتاريخ المجهول

عبد المنعم المحجوب

كتاب التُّبُو

الهويَّة واللغة والتاريخ المجهول

تأليف
عبد المنعم المحجوب

هنـــداوي

كتاب التُّبُو

عبد المنعم المحجوب

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣٧٠٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور عبد المنعم المحجوب.

المحتويات

تقديم	٧
١- التُّبُو والتاريخ المجهول	٩
٢- التكوين الاجتماعي والأعراف	٢٧
٣- تِدَكا من منظور تاريخ اللغات	٣٧
ملاحق	٥٧
المراجع	٨٣

تقديم

تْشُوهُرَهْ لَرْضَا كَا شِشَا
صَافِرَةُ الأَرْضِ مُكَاءُ شَأْشَأة.
(طيور الأرض لغاتها مختلفة).

مثل تُباوي

تخلو المكتبة العربية من شيء ذي بال عن تاريخ التُّبُو ولغتهم، فلا نعثر إلا على القليل جدًّا من الإشارات التي تتحدث عنهم، ولا يكاد الأمر يتغير إلا مع حلول القرن الثامن عشر عندما شهدت الصحراء الكبرى رحَّالة أوروبيين قادوا عدة حمَلات استكشافية عبرت ليبيا باتجاه مجاهل أفريقيا، وكانوا أثناء ذلك يمرُّون بقبائل التُّبُو فيصفون بلداتهم ولغتهم وأنماط إنتاجهم وأصناف طعامهم، إلى آخر ما يتعرفون عليه من مظاهر اجتماعية واقتصادية كانت سائدة آنذاك.

إن هذا الكتاب يساهم في إعادة ترتيب فصول وأولويات تاريخ الصحراء الكبرى الثقافي، من خلال التعريف بالتُّبُو ودراسة لغتهم واستقصاء تاريخهم المجهول وعرض بعض الأنماط الفولكلورية التي تختزل كِيانهم الاجتماعي، كما يهدف إلى تجريد هذه الموضوعات من طابع الحداثة الذي يغلب عليها في الآراء والانطباعات السائدة الآن، وذلك بإعادة اقتراح إحداثياتها التأسيسية وموضَعتها من جديد ضمن سياقاتها التاريخية وتراتيبها الكرونولوجية، وهو الأمر الذي تنطبق ضرورته على تاريخ الأقوام المجاورة أيضًا.

لقد تم إعداد مشروع هذه الدراسة مطلعَ ٢٠١٠م، وأرسلتُ خلاصته البحثية للنشر سنة ٢٠١١م، فنُشر مطلعَ ٢٠١٢م، في «مَجلة عَجمان للدراسات والبحوث» (المجلد الحادي عشر، العدد الثاني) بعنوان: «لسان التُّبُو (تدگا) الحلقة الوسطى بين الأفروآسيوية والنيلية

الصحراوية – دراسة تأثيلية»، وهو بحث يقتصر على الجانب اللُّغوي كما يشي عنوانه، فكان أن عملتُ على استكماله وسد فراغاته في ما يتصل بالتكوين الاجتماعي من خلال الاستقصاء المباشر ومقارنة نتائجه بمشاهدات الرحَّالة.

قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى ثلاثة فصول؛ يعرِّف الأول منها بالتُّبُو في محيطهم الجغرافي والدِّيموغرافي والإثْني، ويقرأ أصولهم مما توفَّر من إشارات نادرة تركها المؤرخون القدامى.

ويتناول الفصل الثاني تكوينهم الاجتماعي وتقسيمهم الطبقي وأعرافهم وتقاليدهم وطقوسهم وممارساتهم الاجتماعية وفنونهم الفولكلورية ومهاراتهم في استخدام عناصر البيئة الصحراوية وصنع الأدوات والمستعمَلات اليومية.

أما الفصل الثالث والأخير فيتناول لغة التُّبُو وإشكاليتَي تدوينها وتصنيفها، وبحث فرضيات نشأتها الأولى، مذيَّلًا بمَسردٍ لُغوي مقارَن، وبعض تعابيرهم الشفوية.

كما يجد القارئ في نهاية هذا الكتاب ملحقًا بمختارات مما كتبه الرحَّالة الذين مروا بالتُّبُو ودوَّنوا عنهم ما شاهدوه عِيانًا أو لاحظوه استنتاجًا، وذلك من خلال نماذج تختزل مثيلاتها من كتابات القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

كان أساس المادة المُعجمية التي اعتمدتُ عليها في المَسرد المقارَن جلساتٍ متصلةً عقدتُها مع المجموعة التُّباوية في حلقة اللسانيات الأفروآسيوية التي تم تأسيسها سنة ٢٠٠٩م في إطار عمل المرصد الثقافي الاجتماعي، وهم: جمعة اللاي ميدي (قبيلة أَهِدَّهْ)، رمضان اللاكي بازن يَلْوَرْ (قبيلة أَرْنَا)، عبد السلام عبد الله اللهي (قبيلة هُكْتِيَا)، عبد الله لبن محمد (قبيلة مَاضَنَا)، علي حسن كواكوا (قبيلة أَضُبَيًّا)، محمد كلِّكوري رمضان (قبيلة مَاضَنَا)، وقد كان لجهدهم المميز أثر كبير في تثبيت صيغ التلفظ وما يشوبها من سمات قبَلية ومحلية.

ويقتضي الاعتراف بالفضل العلمي أن أشير إلى التدقيق الفِيلولوجي الذي قام به د. علي فهمي خشيم أثناء استظهار مفردات التدَكا ونظائرها الفصحى، وما بذله د. ضو ربيع من جهود يسرت إنجاز هذه الدراسة على الوجه الذي يراها به القارئ الآن. فلهما جزيل الشكر والتقدير.

ع. م.

الفصل الأول

التُّبُو والتاريخ المجهول

تبدو الصحراء الكبرى على قدر عظيم من ثبات طبيعتها، إلا أننا لا نستطيع الجزم — على الإطلاق — بثباتها أو سكونها الديموغرافي والاجتماعي في أيٍّ من عصورها الماضية؛ فقد كانت الصحراء عبر التاريخ مجالًا خِصبًا للتنوع الديموغرافي وتمازج الأعراق واللغات، وتنبئ كتابات المؤرخين الإغريق، منذ القرن الرابع (ق. م.)، وكتابات المؤرخين الرومان بعد ذلك، عما شهدته الصحراء من تحولات تدريجية في بعض الأحيان، ومفاجئة في أحيان أخرى. بل إن الكتابات القديمة لهؤلاء المؤرخين، وإن مثَّلت في حينها مفاتيح مهمة لتجار دولهم وجيوشها، إلا أنها أصبحت في الوقت الحاليِّ مثار جدل بسبب تداخل تسمياتها وعدم دقة تعيينها الأقوامَ الصحراوية ومَواطنَها، وهو انطباع قد لا يُلغيه سوى اتفاق الباحثين على أن التَّرحال يظل سمة مميزة تسِم أقوام الصحراء، كما هو الأمر بالنسبة لمَواطنها التي تتسم بالانزياح بين زمن وآخر فيتم تعيينها بناءً على ذلك في أماكن مختلفة.

أما كتابات الرحَّالة ابتداءً من القرن الثامن عشر، مع بدايات استكشاف ليبيا التي كانت بوابة ممهَّدة نحو المجاهل العصية في قارة أفريقيا، فقد اتسمت هي الأخرى بنوع من عدم الدقة وضبابية التحيين، ولكنها تبقى — مع ذلك — مصدرًا أساسيًّا للتعرف على ماضي الصحراء ووصْل عصورها بعضها ببعض، ومتابعةِ ما شهده سكانها من تنوع وتداخل.

وعلى الرغم مما يُنسب من أصالة لقبائل التُّبُو فإن المعطيات الأثرية القليلة التي نجدها في الصحراء الكبرى لا تفيدنا كثيرًا إذا أردنا الحديث بشكل دقيق عن ماضيهم،

بسبب تَرحالهم الدائم وتوزعهم على واحات الصحراء وأطراف السودان الشرقي والأوسط (جنوب ليبيا وتشاد والنيجر).[١] ويُعتبر بحث معظم المراحل الزمنية من تاريخهم أمرًا شبه مستحيل؛ ذلك أن غياب التدوين الذي ينسحب على هذا النوع من البحوث بأكمله قد أدى إلى الاكتفاء عادةً بالمرويات الشفهية، وهي نادرة على كل حال، أما المرويات من غير التُّبُو فإنها عادةً ما تكون انعكاسًا لمدى اتفاق حامليها أو اختلافهم مع التُّبُو، أو هي عرضة للتأثر بهذا الشكل أو ذاك بصور نمطية شائعة عند أقوام الصحراء حول مجتمعات التُّبُو شبه المغلقة، والتي يعتبرها الكثيرون أشبه بالمَعزِل (Ghetto) الذي يصعب اختراقه أو معرفة ما فيه.

(١) التُّبُو في المحيط الجغرافي

يتوزع التُّبُو جغرافيًّا شرق فَزَّان[٢] وجنوبها، وينتشرون في الجنوب الشرقي من الصحراء الليبية، متغلغلين جنوبًا حتى تخوم بحيرة تشاد، وشرقًا حتى الإقليم الشمالي الشرقي من النيجر. وحسب رِيكلوس في موسوعته الصادرة سنة ١٨٩٢م فإن التُّبُو يوجدون في «كل شرق الصحراء من خط ١٢° طولًا إلى الحدود المصرية، وبالاتجاه جنوبًا من فزَّان

[١] جعَل العربُ السودانَ اسمًا يجمع أقوام جنوب الصحراء من غانا غربًا إلى السودان الحديث شرقًا دون تحديد دقيق لنهايته في بلاد الزنج، واستخدمه الفرنسيون بمعنى منطقة الساحل الأفريقي أو ما عُرف بالسودان الفرنسي (مالي وتشاد والنيجر). وعندما استعملت بريطانيا في القرن التاسع عشر هذا الاسم أطلقته على ما عُرف بالسودان المصري الإنجليزي، ونستخدمه هنا بدلالته العربية ضمن التقسيمات التالية: السودان الغربي (حوض السنيغال، غامبيا، بوركينافاسو، النيجر الأوسط)، والسودان الأوسط (المناطق المحيطة ببحيرة تشاد وتمتد شمالًا حتى جبال تِبِستي وما يتاخمها شرقًا وغربًا)، والسودان الشرقي أو الأفريقي (مناطق النيل وروافده جنوب النوبة).

[٢] فزَّان هي الإقليم الجنوبي الغربي من ليبيا الحديثة، وتمتد في الكتابات التاريخية حتى حدود مصر الغربية، وكانت قديمًا تضم مملكة جَرمة، ثم أصبحت جزءًا من مملكة كانِم في القرن الثالث عشر، ثم استقلت وعُرفت باسم «دولة أولاد امحمد» (١٥٥٠–١٨١٣م) وعاصمتها مرزق، إلى أن سيطر عليها العثمانيون في القرن السابع عشر.

إلى كانِم،[٣] وواداي،[٤] ودارفور.»[٥،٦] وقد لاحظ هُورْنمان[٧] في رحلته من القاهرة إلى مرزق، عاصمة فزَّان، سنة ١٧٩٧م، أنهم يسكنون، ويحكمون أيضًا، الإقليم الذي يقع في المنطقة الصحراوية ما بين فزَّان ومصر، وأن «أقرب بقعة مسكونة شمال التُّبُو هي أوجلة[٨] وسيوة،[٩] ويجاورهم من ناحية الجنوب العربُ الرُّحَّل، ومن ناحية الغرب — فيما بعد فزان — أراضي الطوارق.»[١٠،١١]

أما اليوم فإن وجودهم يتركز في مناطق مختلفة من تشاد والنيجر وليبيا، منحسرين بذلك عن بعض أطراف الصحراء الكبرى وبلاد السودان الشرقي والمتوسط، بعد أن عاشوا

---

[٣] كانم Kanem: تأسست مملكة كانِم الإسلامية سنة ٨٠٠م على يد العرب والزنوج، وظلت قائمة حتى أواخر القرن التاسع عشر. انتسب سلاطينها إلى سيف بن ذي يَزَن، وكانت تُخُومها تمتد إلى فزَّان شمالًا، ومن النيل غربًا إلى النيجر شرقًا، وهي الآن مقاطعة تشادية شمال بحيرة تشاد.

[٤] واداي Wadai: تقع شرق بحيرة تشاد على طريق قوافل الرقيق وتجارة الجلود من أفريقيا والسودان إلى الكُفرة وبِنغازي. أصبحت في القرن السادس عشر سلطنة إسلامية مستقلة. دعمهم السنوسيون في مقاومتهم للاستعمار الفرنسي عدة عقود.

[٥] دارفور Darfur: إقليم في غرب السودان الحاليَّة يتاخم بحر الغزال وكُردُفان، يحُدُّ جنوب شرق ليبيا، وشمال شرق تشاد، وأفريقيا الوسطى جنوبًا.

[٦] هُورْنمان: ١١٧. انظر: ٤-١-أ.

[٧] زار الرحَّالة الألماني «فريدريك هُورْنمان» فزَّان سنة ١٧٩٨م، ونُشرت مذكِّراته سنة ١٨٠١م. انظر: ٤-١-أ.

[٨] تقع أوجلة على بعد ٤٠٠كم من الساحل الليبي جنوب بَرقة، واسمها القديم «أوجيلا». زارها هيرودوت (٤٠٠ق.م.) لرؤية معبد آمون. عُرفت بواحاتها التي كانت القبائل الليبية القديمة تقضي فيها موسم جمع ثمار النخيل. ويتحدث رِيكلوس عن أوجلة القديمة غير البعيدة عن المدينة الحديثة.

[٩] سيوة: واحة تشتهر بالينابيع وعيون المياه العذبة. تقع على بعد ٣٠٠كم من الساحل المصري جنوب مرسى مطروح، وقد زارها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ق.م. فنصبه الكهنة ابنًا للإله آمون وأهدَوه تاجًا دينيًّا مقرَّنًا. يتحدث رِيكلوس عن سيوة القديمة وهي الآن مجموعة خرائب غير بعيدة عن مركز سيوة الحديثة.

[١٠] الطوارق (أو إيموشاگ): شعب من الرُّحَّل يتحدثون التماشگ وهي فرع أمازيغي جنوبي، وقد كانت ممالك الطوارق التاريخية تتوزع بين الجزائر، ومالي، والنيجر، وبوركينافاسو، وجنوب غرب ليبيا، وبعض قبائلهم تتوطن غات الليبية الآن مع نسبة ضئيلة من الأعراق الأخرى، ويتوزعون في جنوب غرب ليبيا بالتناظر مع التُّبُو في جنوب شرق ليبيا.

[١١] ريكلوس: ٤٦٨. انظر: ٤-١-ب.

لعدة عصور جوَّالين مترحلين في هذا المحيط الجغرافي الكبير دون تخوم محددة، ودون أن يعرفوا — أو يعرف غيرهم — على وجه التدقيق تاريخ تَرحالهم ذاك، ومَدْوَنَة توطُّنهم هذا.

والتُّبُو قوم رعاة من قبائل الصحراء الأصلية، كانوا يتحصنون عند الضرورة بجبال تِبِستي،[١٢] وينتشرون إذا زالت الضرورات بين شعابه وسفوحه، يتوطنون مرابع الكلأ على أطراف الحواضر والواحات، يقتفون أثر السواد فيحلُّون بين الوديان، يقودون قطعان إبلهم، ويقيمون خيامهم حيث سنحت لهم المواسم والأنواء.

لا يعرِّف التُّبُو أنفسهم بهذا الاسم، إذ يسمُّون كل قبيلة منهم باسم عام هو «أَرْبِي»، وهي كلمة نلمح فيها بوضوح كلمة «عَرْبِي»، في صيغة محلية شائعة في أفريقيا لكلمة «عَرَبِي»، فحرف العين يتلاشى عادةً في الأَلِف في نطق التُّبُو.

أما كلمة «**تُبُو**» فالأرجح أنها تعني: أهل الجبل، أو الذين يقطنون الجبل، وتتكون من: «**تُو**»: صخر، جبل، أو بالأحرى الجبل (معرَّفًا) دلالة على سلسلة تِبِستي الجبلية الواقعة جنوب ليبيا وشمال تشاد، و«**بو**»: موطن، سُكنَى. وقد كان الرحَّالة ناختيغال من أوائل من نشر هذا الرأي نقلًا عن التُّبُو أنفسهم. قائلًا إن اسمهم يعني: Men of Tu، أي رجال الجبل أو الصخر.[١٣]

ونعثر في العربية على كلمة ذات دلالة خاصة قد تحيلنا إلى سمة من السمات الاجتماعية القديمة لقبائل التُّبُو، فكلمة «**تبا**» لا يخصصها معجم لسان العرب في رواية ابن الأعرابي إلا لمعنًى يتيم: «غزا وغنم وسبى»،[١٤] وقد كانت قبائل التُّبُو معروفة على مدى القرون الوسطى وما قبلها بغزوها القبائل المجاورة وسعيها من أجل غنائم الحروب، كما شارك

---

[١٢] سلسلة جبال في الصحراء الكبرى تمتد على مساحة ١٠٠٠٠٠كم٢، وهي مجموعة من البراكين الخامدة، وتُعتبر قمة إِمي كُوسي (٣٤١٥م) أعلى قممها. يقع معظمها شمال تشاد، وجزء صغير منها أقصى جنوب ليبيا. وبقدر قِدم هذه الجبال، باعتبارها موطن التُّبُو التقليدي، فإن المؤرخين القدامى لم يذكروا اسم هذه القبائل بشكل واضح، ولكنَّ ذِكر اسم تِبِستي عند بِلِيني الأكبر (٥: ٥) (انظر: ليبيا القديمة، مادة تِبِستي) يدل على وجود هذه القبائل منذ ذلك الوقت، وأتصور أن اسم تِبِستاي Tibestae، أي سكان الجبل أو التِّبِستيون، كان معروفًا قبل ذلك.

[١٣] انظر: ٤-١-ب.

[١٤] لسان العرب: تبا.

مواطن التُّبُو وانتشارهم في الصحراء الكبرى.

بعضها في تجارة الرقيق فكانت جزءًا منها حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهو الأمر الذي تحفظه جيدًا مرويات التُّبُو الشفوية في الوقت الحالي.

إننا لا نعثر في الكتابات التاريخية القديمة على إجابات شافية عن موطن قبائل التُّبُو الأصلي، ومن غير المجدي البحث عن ذلك، خاصة وأنها كانت مترحلة بين أطراف الصحراء الكبرى منذ القدم، ولكن نشأت عدة فرضيات تفسر وجودها حول سفوح جبال تبستي، وهي فرضيات لا يمكن ترجيح إحداها دون الأخرى لغياب القرائن اللُّغوية والاجتماعية، كما

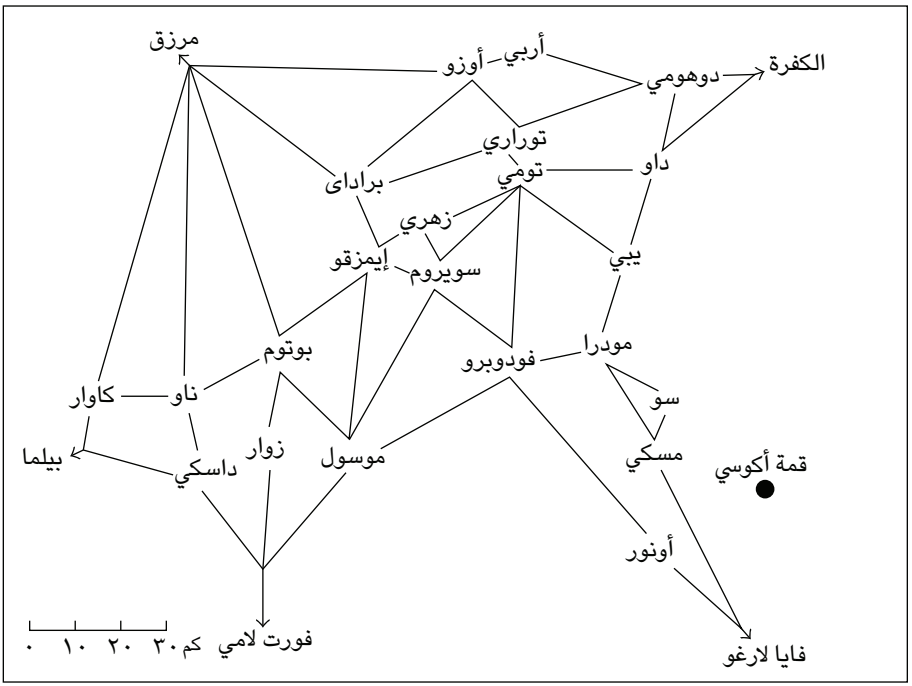

تبستي على المنطقة الحدودية بين ليبيا وتشاد.

أنها لا تصمد أمام ما تأكد من صلة كانت قائمة متصلة بين جنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، بما في ذلك «التأثير البيولوجي للشبَه في الجزيرة العربية على القرن الأفريقي إذ يُشعَر به على شعوب هذه الجهة: الصومال، الإثيوبيين. لكن أيضًا — بدون شك — يُشعَر به على التُّبُو والفُلان والصنغي والهَوسا ... إلخ.»[١٥] ويشير التنوع العجيب «في الطباع الوراثية الأفريقية إلى تطور طويل المدى في هذه القارة، وما لدينا من بقايا متحجرة مما قبل التاريخ يبين انتشارًا واسعًا جدًّا لنَموذج جنوبي الصحراء، من أفريقيا الجنوبية حتى شمال الصحراء، كما كان لمنطقة السودان دورُ مفترَقِ الطرق بالنسبة لهذا الانتشار.»[١٦]

[١٥] النظريات المتعلقة بالأعراق وتاريخ أفريقيا. الموسوعة الأفريقية، ج١، ص٢٧٨.
[١٦] المرجع السابق.

وربما يكون اللجوء إلى «التأثير البيولوجي للشبَه» مسألة غير علميةٍ تمامًا، ويشوبها التخمين؛ إذ لا يُخلَص منها إلا إلى تعميمات غير مؤكدة تكون قابلة للتحوير أو النقض، ولكن ماضي شمال أفريقيا والصحراء الكبرى كان على الدوام مسرحًا تعتمل فيه التفاعلات بجميع أنواعها، ويعتبر التمازج العرقي والثقافي نتيجة منطقيةً تمامًا لهذه التفاعلات، ومن هنا فقط يمكننا أن نتحدث عن تنوع «الطباع الوراثية» التي تكونت عبر هذا التاريخ الطويل.

إننا قد لا نستطيع الحديث عن نَموذج صحراوي محدد مثلًا، أي ضمن مسطرة عرقية وإثنية ثابتة لا تتغير، ولكننا نستطيع — بكل تأكيد — أن نتحدث عن نموذج متأثر ببيئة الصحراء الطبيعية أو الثقافية أو الاجتماعية، بما يشكل مظاهر هوية متقاربة وإن لم تكن متطابقةً تمامًا.

(٢) التُّبُو في المحيط الإثني

لقد حاول أوريك بيتس في كتابه «الليبيون الشرقيون»[١٧] أن يكون أكثر اعتدالًا أثناء سعيه وراء تلمس الملامح الإثنية في هوية التُّبُو فلم ينسبهم إلى الزنوج Negros أو شبه الزنوج Negroid بل إلى الحاميين السُّمر Dark Hamites[١٨] الذين «ربما كانوا مزيجًا من حامِيِّي الصحراء وزنوج السودان»، على أن خريطته لإعادة تحديد مواطن الحاميين جاءت على نحو جامع وإن تداخلت فيها التفاصيل الإثنية والثقافية.

أعاد بيتس «تخريط» سكان شمال أفريقيا والصحراء على النحو التالي:[١٩]

(١) الغوانش (جزر الكناري).
(٢) الحاميُّون الأطلسيون (يقاربهم بيتس مع الحَرَاطِين والترازا).
(٣) حاميُّو المتوسط (وهم مختلطون مع أعراق أخرى كالساميين العرب).
(٤) حاميُّو الصحراء (خليط من الزنوج والعرب، ولكنهم أنقى في الوقت الحالي من بقية الأعراق الحامية).

---

[١٧] Bates, Oric. *The Eastern Libyans, An Essay,* Macmillan and Co. London, 1914.

[١٨] بيتس، ص٤٥.

[١٩] نفس المصدر.

(٥) الزنوج البربر: خليط من العِرقَين الزنجي والبربري مع تأثيرات سامية وعربية، وموطنهم الأصلي هو شرق أفريقيا.

(٦) التُّبُو (الحاميون السُّمر وربما كانوا مزيجًا من حاميي الصحراء وزنوج السودان).

(٧) المصريون (عرق مختلِط منذ قديم الزمان وفيه تأثيرات من حاميي الصحراء والزنوج النيليين والساميين).

(٨) النوبيون (عرق يشابه التُّبُو ولكن بزنوجة أكبر).

(٩) البِجا (نتاج اندماج حاميي الصحراء والنوبيين والساميين).

(١٠) الإثيوبيون (التكوين نفسه مع تأثيرات زنجية).

(١١) الدناكلة (التكوين نفسه مع درجة سامية أكبر).

(١٢) الصوماليون (التكوين نفسه مع درجة زنوجة أكثر).

(١٣) الغالا (التكوين نفسه مع درجة سامية أقل).

(١٤) الماساي (عرق شبه زنجي ربما بتأثير حاميٍّ خفيف وتأثير ساميٍّ قديم، وإثنولوجيا هذا العرق يحيطها الشك).

وقد اقترح بيتس أن يعاد تصنيف هذا التقسيم إلى أربع مجموعات كبرى تتفرع إلى وحدات أصغر، وهي:

(١) الحاميون الليبيون أو الغربيون: (الغوانش، حاميو الأطلسي والمتوسط، التُّبُو).

(٢) الساميون الحاميون أو الشماليون الشرقيون: (المصريون، البجا، الدناكلة).

(٣) الحاميون الإثيوبيون أو الشرقيون: (الإثيوبيون، الصوماليون، الغالا، النوبيون).

(٤) الحاميون الجنوبيون المختلطون: (الماساي، الزنوج البربر).

وبالرغم مما يشوب هذه التصنيفات الجامعة من تعميم وعدم دقة، فضلًا عن أن التصنيف الأفروآسيوي يحل بكفاءةٍ بدلَ التصنيف السامي والحامي الذي كان متداولًا، إلا أن ما يميز هذه التصنيفات هو عدم اختلافها الكبير مع التصنيف الإثني اللُّغوي اللاحق الذي حافظ في وحداته الكبرى على هذه التقسيمات.

ومهما كانت حقيقة هذه التصنيفات الإثنية اللُّغوية فإن ذلك لا ينقض بحال من الأحوال الرأي المرجَّح حول بُدائية التُّبُو وكونهم أحد الأعراق التي أسست في نطاقها الجغرافي ما نشهده من تركيبة عرقية ولُغوية أفريقية.

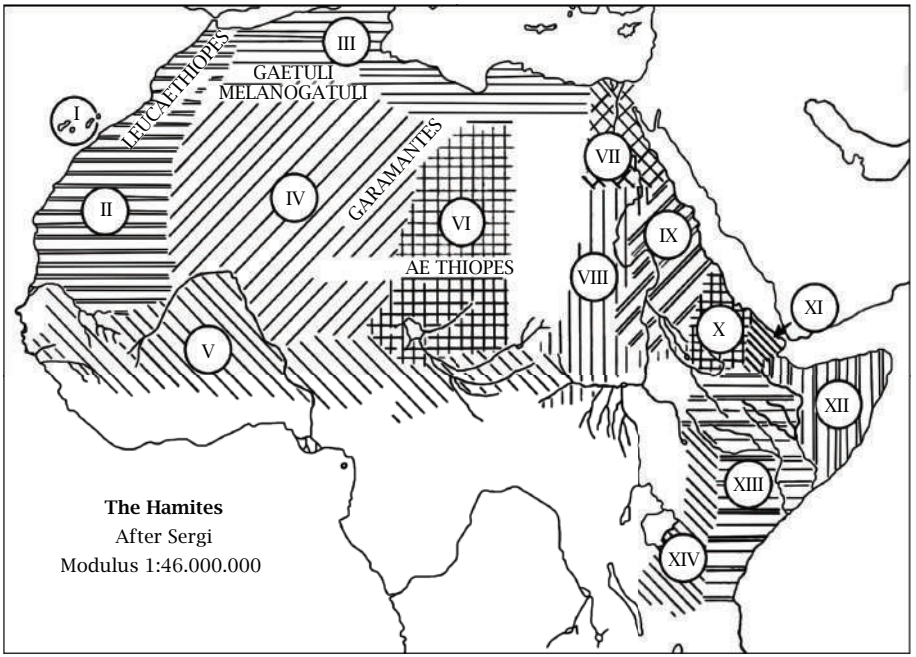

خريطة بيتس الإثنية: الأعراق السامية-الحامية في أفريقيا، التُّبُو يشغلون القسم VI
(المصدر: الليبيون الشرقيون، ٤٥)

(أ): المكتهفون Troglodyte

يرى بعض الباحثين أن أسلاف التُّبُو هم المكتهفون (التروغلوداي) أي سكان الكهوف، الذين كان موطنهم جنوب موطن الغَرَمنت،[٢٠] وهم من الإثيوبيين (أي السود).[٢١] وقد ذكر هيرودوت (٤: ١٨٣) أن الغَرَمنت يطاردون المكتهفين الإثيوبيين الذين هم «أسرع في الجري من أي قوم بلغتنا أخبارهم»، وقال: «هم يعيشون على الثعابين والسحالي وأشباه الزواحف،

[٢٠] الگرمنت (الغَرَمنت، الجرمنت) سكان جنوب ليبيا القدامى، عاصمتهم گرمة (غرمة، جرمة). وتميل البحوث الأثرية التي أُجريت على بقايا القبور إلى القول بأن الغَرَمنت كانوا ينتمون إلى أربع مجموعات سلالية: اثنتان منها بيضاء وواحدة زنجية والرابعة مزيج من هذه السلالات.

[٢١] تعود كلمة الإثيوبيين Ethiopians إلى أصل يوناني يعني: ذوو الوجوه المصهَّدة أو المحترقة.

ولا يشبه كلامهم أي كلام آخر في العالم، بل هو مثل زَعيق الخفافيش». ووصف سترابو (٢: ٣٣) أرضهم بأنها «في الجزء الأكبر منها صخرية وصحراء رملية». أما بليني الأكبر (٥: ٥) فيشير إلى عَلاقات تجارية كانت قائمة بين المكتهفين وبين الرومان، ومن الواضح أن المكتهفين قد نالوا حماية الرومان الذين عملوا على القضاء على الغَرَمنت وهم أعداء المكتهفين. يقول بليني: «سكان الكهوف هم الذين لا تتعدى صلتنا بهم تجارة الحجر الكريم المجلوب من إثيوبيا، وهو ما نسميه نحن العقيق الأحمر». ذكرهم هيرودوت (٤: ١٨١، ١٨٣) وبليني (٢: ٢٢٨) و(٥: ٣٤، ٤٣) وبطليموس (٤: ٤: ٦).[٢٢]

ولعل القول بأن التُّبُو هم المكتهفون الوارد ذكرهم لدى المؤرخين اليونانيين والرومان ليس إلا من قبيل التخمين الذي لا يعتمد إلا على لون البشرة وسُكنى الكهوف لا غير، إذ إن هذه الصفة أصبحت كما لو كانت تقليدًا تاريخيًّا يجري الأخذ به كلما تحدث المؤرخ عن المكتهفين.

من ذلك — مثلًا — أننا نجد في «رحلة حنُّون إلى الأرجاء الليبية وراء أعمدة هرقل» أن الإثيوبيين (أي السود) يقطنون وراء نهر لِكسوس في منحدرات الجبال على ساحل المحيط الأطلسي و«في جوار الجبال يعيش المكتهفون Troglodyte، وهم رجالٌ بمظاهر متعددة الأشكال»، ويوصفون أيضًا بأنهم «يجرون أسرع من الخيول»، كما يصفهم نصُّ الرحلة بأنهم «غير مضيافين»، وأن الفينيقيين «تدبروا مترجمين منهم بمشقة.»[٢٣]

ولعل في هذا المثال ونحوه ما يدل على نوعٍ من التقليد الذي كان سائدًا بين المؤرخين القدامى الذين يُطلقون بسهولة صفة أو اسم «مكتهفين» على الأقوام السوداء التي تعيش في المناطق الجبلية، سواء كانوا في الصحراء الكبرى أو على أطرافها من المحيط الأطلسي غربًا إلى غرب نهر النيل شرقًا.

(ب): التدامنسي Tedamansii

أشار إ. ريكلوس (١٨٣٠–١٩٠٥م) إلى إمكانية مماثلة التدا (أي التُّبُو الشماليون) بقبيلة «تدامنسي» الغَرَمنتية التي ذكر أن بطليموس حدد موقعها في طرابلس (أي ليبيا الحاليَّة).[٢٤]

---

[٢٢] ليبيا القديمة، مادة: مكتهفون.

[٢٣] رحلة حنُّون، ص٤٤.

[٢٤] ريكلوس: ٤٦٨.

والتدامنسي قبيلة ليبية قديمة ربما كانت «من قبائل غَدامس في فزان، وربما كانت من الغتولي، وقد ذكرهم بطليموس (٤: ٣: ٦).»[٢٥] وبقدر ما يبدو تحديدُ هذه الصلات غيرَ ممكن في الوقت الحالي فإن التجانس بين اسمي «تدا» و«تدامنسي» لا يبدو عديم الدلالة، وإذا اعتمدنا إشارة بطليموس فإن علينا في هذه الحالة أن نصعد بموطنهم باتجاه الشمال الغربي، فالتدامنسي جعلهم بطليموس جنوب السماموك، وكان موطن قبيلة السماموك Samamukii «شمال شرق الجبل الغربي حيث المكا Maces أو المكاي، وقد ذكرهم بطليموس (٤: ٣: ٦) و(٤: ٣: ١١) وقال إنهم بالقرب من قبيلة كنيف أو كينوبي Cinyphii»[٢٦] وهي «قبيلة يعود اسمها إلى نهر كينوب (وادي كعام) وكانت بالقرب من شرق وجنوب لِبدة الكبرى، وهي من المكا أيضًا، وقد وُصف رجال كينوبي في جيش حَنِبعل بأنهم مكا. كما ذكرهم سيليوس إيتاليكوس في (٢: ٦٠) وبطليموس أيضًا في (٤: ٦: ٣).»[٢٧]

وبمقارنة ذلك مع ما نجده لدى بيتس من جمْع بين التُّبُو وعدة أعراق أخرى هم الغوانش وحاميو الأطلسي وحاميو المتوسط تحت تسمية «الحاميين الليبيين أو الغربيين» قد لا نتردد على الإطلاق في القول إن التُّبُو (أو التدا على الأخص) قد توطنوا في مرحلة سابقة إلى الشمال الغربي أكثر بكثير مما يُعتقد الآن، وهو الأمر الذي يشي به ترجيح صلة قبيلة التدامنسي التي استوطنت غدامس بالتُّبُو الشماليين (التدا) الذين استوطنوا جبال تِبِستي.

إن تاريخ التُّبُو الغامض هو جزء من طبيعة التَّرحال الدائم التي كانت عليها القبائل الليبية القديمة التي حَدد الجغرافيون والمؤرخون اليونانيون مواطنها أول مرة في القرن الرابع قبل الميلاد، بعد عصور اتسمت بانتشار أنماط العصر الحجري التي غلب عليها الجمع والصيد، وتميزت بغياب التدوين وعدم الاستقرار الذي لم يتحقق إلا بعد انتشار الزراعة وقدوم الكنعانيين (الفينيقيين)، ولا يمكننا بصدد التُّبُو أيضًا إلا أن نتوقع استمرار تَرحالهم إلى الجنوب إلى أن توطنوا مرتفعات تِبِستي، أي إن هذه المرتفعات تكون في هذه

[٢٥] ليبيا القديمة، مادة: تيدمن.

[٢٦] ن.م. مادة: سماموك.

[٢٧] ن.م. مادة: كنيف.

الحالة مهدًا ثانيًا للتُّبُو ربما تم استيطانه مع توغل الرومان جنوبًا، وبعد أن قام سِبتِموس سِفِيروس الذي حكم الإمبراطورية الرومانية بين ١٩٣ و٢١١م بإخضاع القبائل الليبية لا سيما قبائل الغَرَمنت والنَّسَامون، وبعد أن نصَّب قوات مراقبة متقدمة وقلاعًا وحاميات في الدواخل بما عُرف باسم التخوم الطرابلسية Limes Tripolitanus، وهي على هيئة قوس يمتد من لِبدة الليبية إلى قابس التونسية،[٢٨] مرورًا بغدامس (موطن التدامنسي) التي أنشئت فيها قلعة رومانية جعلتها إحدى أكبر نقاط المراقبة والدفاع الأمامية.

إن معطيات هذه الفرضية مجتمعةً تستدعي القول أيضًا بصلةٍ ما بين التدا والغَرَمنت، أي أن التدا كانوا فرعًا من الغَرَمنت اضطُر إلى مغادرة موطنه الأصلي الذي كان يقع إلى الشمال الغربي ليتوطن جنوب فزان، أي جنوب عاصمة الغَرَمنت الذين «كانوا يسيطرون على منطقة واسعة من ليبيا تمتد من الحمادة الحمراء شمالًا وجبال أَكاكوس وتَدْرارْت غربًا وجبال تِبِستي جنوبًا وجبال العوينات وواحات الكُفرة شرقًا.»[٢٩] ولم تكن هذه الأقاليم نمطيةً من الناحية الإثنية، حيث «تميل البحوث الأثرية التي أجريت على بقايا القبور إلى القول بأن الغَرَمنت كانوا ينتمون إلى أربع مجموعات سلالية: اثنتان بيضاء وواحدة زنجية والرابعة مزيج من هذه السلالات.»[٣٠]

أما المكتهفون الذين ذكر هيرودوت (٤: ١٨٣) الذي عاش بين ٤٨٤ و٤٢٤ق.م. أن الغَرَمنت كانوا يطاردونهم، فإنهم يبعدون زمنيًّا عن تَرحال التدا إلى الجنوب بحوالَي ٦٥٠ سنة. ونرجح أنهم كانوا أسلاف القبائل الزنجية التي تعيش قرب بحيرة تشاد (بُرنو، كانِم، ... إلخ) بعد أن تم دفعهم باتجاه الجنوب لتحتل قبائل التدا مواطنهم وبعد أن أصبح تَرحال التدا إلى الشمال حيث مواطنهم الأصلية واختراق خط الدفاعات الرومانية المسمى «خط التخوم الطرابلسية» مستحيلًا دون الدخول في حرب خاسرة مع الفرقة الإمبراطورية.

لهذه الأسباب مجتمعةً فإن أسبقية اسم «تدا» على اسم «تِبو» لها ما يبررها من حيث إن عصورًا سبقت توطُّنَهم مرتفعات تِبِستي التي نُسب إليها اسمهم الجديد «تِبُو» دون أن يُعرَفوا قبل ذلك إلا باسمٍ أقدم هو «تدا» الذي تم اختزاله من اسمهم الأكثر قدمًا أي:

---

[٢٨] ليبيا القديمة، مادة: سبتموس.

[٢٩] ن.م. مادة: غَرَمنت.

[٣٠] ن.م. مادة: غَرَمنت.

«تِدامنسي»، وصلة هذه القبيلة بالغَرَمنت تجعلنا بالتالي نرى في التدا خلفًا للغَرَمنت، كما تجعلنا نبحث عن لغة الغَرَمنت المفقودة في لغة التدا دون سواها.

لقد حافظت بعض القبائل الليبية القديمة على أسمائها الأصلية محورة بهذا الشكل أو ذاك، بينما استبدلت معظم القبائل أسماءها بين زمن وآخر، ونادرة هي القبائل التي احتفظت بأسمائها الأولى كما هي، ولربما نستنتج مما مر من تحليل أن الاسم الذي ساد طوال التاريخ، أي «تدامنسي»، ثم تم اختزاله إلى «تدا» قد عاش إلى ما قبل القرن السابع بقليل، أما مع بدء انتشار الإسلام في شمال أفريقيا، فإن كلمة «تبو» قد كانت تدل على قبائل التِّدا وغيرها من التفرعات القبلية؛ لاشتراك هذه الكلمة في اللغتين التِّدَويَّة والعربية في معانٍ دالة على أبرز سمات هذا الشعب، فهي تؤدي في اللغة العربية معنى الغزو والنهب والغُنْم. وتؤدي في لغة التِّدا معنى اللجوء إلى الجبال وتوطنها، فكانت بذلك اسم عَلَم جامعًا نالَ قبول الأهالي والأقوام المجاورة في الوقت نفسه، وشاع استعماله ليشمل التدا الأصليين والقبائل التي نزحت لاحقًا نحو الجنوب فالتحقت ببحيرة تشاد أو سهول السافانا، وهي صالحة للتوطن والرعي، وكونت بذلك فرعًا مستقلًا نما وازداد تَعداده حتى أصبح أكبر بكثير من الأصل الذي تحصن بمرتفعات تبستي دون أن يتجاوز الواحات والوديان القريبة من موطنه هذا.

(٣) التُّبُو في المحيط الديموغرافي

يشير الرحَّالة الألماني ناختيغال[٣١] إلى مظهر سكان فزان البالغ التنوع إبان رحلته إلى الصحراء سنة ١٧٩٧م قائلًا: «إن سكان فزان اليوم يمثلون خليطًا حقًّا، ومن الممكن أن يخلق توضيحُ وتحليل ذلك صعوباتٍ جمةً أمام الرحَّالة. ففي الجنوب، في تجرهي،[٣٢]

[٣١] غوستاف ناختيغال Gustav Nachtigal (١٨٣٤–١٨٨٥م) رحَّالة ألماني قام بحملة استكشافية إلى وسط وغرب أفريقيا وصولًا إلى التوغو والكاميرون اللتين أصبحتا أولى المستعمرات الألمانية في القارة. أصبح مستشارًا للإمبراطورية في تونس وأقاليم غرب أفريقيا. له: «الصحراء والسودان» في عدة أجزاء، طُبع الجزء الأول في ألمانيا سنة ١٨٧٩م، والجزء الثاني سنة ١٨٨١م، والجزء الثالث سنة ١٨٨٩م. وننقل هذا المقتطف عن الترجمة الإنجليزية: Sahara and Sudan, Translated by: Allan Fisher and Humphrey Fisher, Billing and Sons, London, 1974.

[٣٢] تجرهي Tejerri: من بلدات محافظة مرزق (ليبيا).

ومدروسة،[٣٣] وبخي،[٣٤] والقَطْرون،[٣٥] يوجد التُّبُو الأقحاح من تبستي، وفي الجنوب الغربي، حيث الوادي الغربي،[٣٦] هناك الطوارق الأقحاح، وفي الشمال والشرق (سوكنة،[٣٧] وودان،[٣٨] وتِمسة)[٣٩] توجد مواطن منفصلة يسكنها البربر الشماليون. أما العرب الأقحاح المقيمون، والعرب والبربر الرُّحَّل، والأرقاء الذين من بُرنو[٤٠] وولايات الهَوسا[٤١] وبلدان أفريقيا الداخلية، وأبناؤهم — الأرقاء والأحرار — فيوجدون متوزعين على طول البلاد وعرضها. وأخيرًا نرى في كل مكان أناسًا غير محدَّدي الهوية لا ينتمون إلى أيٍّ من أعضاء هذه المجموعات، ولكنهم يشبهون الكثير منهم. هؤلاء — احتمالًا — يمثلون اللب الصغير من الفزازنة الأقحاح وقد تغيروا بفعل الزمن.»[٤٢]

يضيف ناختيغال بعد ذلك: «إن الغَرَمنت، سكان البلاد الأصليين، أنشَئوا مع قبائل أخرى من الصحراء، الموجة الثانية من الليبيين، ليمثلوا بذلك مستوًى جديدًا من التداخل. لقد كانوا جيران الإثيوبيين الذين عاشوا إلى الجنوب منهم، وكانوا يشبهونهم إلى حد بعيد، وقد قاموا بانتقال تدريجي واضح من سكان بلدان الساحل إلى القبائل التي تعيش على طرف الصحراء الجنوبي. وكانت مراحل هذا الانتقال سببًا في ظهور عبارة الميلانوغيتولي[٤٣]

---

[٣٣] مدروسة Medrusa: من بلدات القَطْرون (ليبيا)، وهي غير مدروسة الجزائرية.

[٣٤] بخي Bakhi: من بلدات القَطْرون (ليبيا).

[٣٥] القَطْرون Qatrun: آخر مدن جنوب ليبيا، وتقع على بعد ١١٠٠كم جنوب طرابلس.

[٣٦] الوادي الغربي Wadi el-Gharbi: منطقة جنوب شرق ليبيا بقرب إدري يسكنها الطوارق.

[٣٧] سوكنة Soqna: من بلدات ودان (ليبيا)، تقع على شمال شرق جبال السوداء على بعد ٦٠٠كم جنوب شرق طرابلس.

[٣٨] ودان Waddan: الاسم التاريخي لمنطقة الجُفرة الحاليَّة (ليبيا).

[٣٩] تِمسة Temissa: قرية في ودان (ليبيا)، تقع شرق زَويلة الأثرية بالقرب من الهَروج السوداء، وتقع تِمسة الحديثة على بعد كيلو متر ونصف من القرية القديمة.

[٤٠] بُرنو Bornu: ولاية في الشمال الشرقي من نيجيريا، غرب بحيرة تشاد، وقبائل البُرنو من الكانوري، وقد اعتنقوا الإسلام في القرن الحادي عشر.

[٤١] الهَوسا Hausa (الهَوساوة): من أكبر الشعوب الأفروآسيوية في غرب أفريقيا، يتوطنون شمال نيجيريا وجنوب النيجر.

[٤٢] Sahara and Sudan, p. 170.

[٤٣] الميلانوغيتولي Melanogaetuli: الغيتولي السُّود. والغيتولي تجمُّعٌ من القبائل الليبية القديمة المعاصرة للغَرَمنت على امتداد تخومها باتجاه الغرب والشمال الغربي.

بين القدماء، وقادت دوفيرير[٤٤] إلى الحديث عن قبائل إثيوبية فرعية Sub Ethiopian، وبالذهاب باتجاه أعلى النيل يستطيع المرء أن يرى بنفسه كيف أن سكان مصر العليا يندمجون بشكل تدريجي تمامًا مع البربر أو البرابرة،[٤٥] والبجا،[٤٦] وهؤلاء يندمجون ثانيةً مع السودانيين.

إن التُّبُو الجنوبيين (الدَّزا) يمثلون درجةً قريبة من الزنوج بأكثر مما يمثلها التُّبُو الشماليون (التِّدا). وتوجد صعوبة ما في تحديد كيف يجب تقدير الزَّغاوة[٤٧] في دارفور الشمالية! ومع ذلك فهم قريبون جدًّا بدرجة واضحة بما يكفي ليكونوا بين الطوارق وبربر المناطق الساحلية. ولدينا على هذا النحو سلسلة من التدرجات والتحولات التي تمثل خطوط الحدود الدقيقة التي يكون من الصعب رسمها عادةً.»[٤٨]

ويبدو الحراك الديموغرافي الذي عرَفته قبائل التُّبُو متداخل المسارات، فإذا افترضنا قِدم التُّبُو الشماليين على التُّبُو الجنوبيين فإن ذلك يعزز فرضية صلة التدا بقبيلة التدامنسي القديمة، أي إن جبال تبستي تكون في هذه الحالة مهد التُّبُو الثاني الذي ربما استوطنته بين ١٩٣–٢١١م كما ذكرنا. على أن هذه الفرضية لا تُلغي طبيعة التَّرحال الدائم التي ميزت قبائل التدا، والتي تبدو قبائل الدزا مقارنةً بها أكثر استقرارًا وتوطنًا.

نستطيع من خلال فك نسيج الخليط الذي ذكره ناختيغال أن نعود — بهذا الشكل أو ذاك — بكل عِرق إلى موطنه الأم. إن ناختيغال يتحدث عن: التُّبُو الشماليين، والتُّبُو

---

[٤٤] هنري دوفيرير Henri Duveyrier (١٨٤٠–١٨٩٢م) مستكشف فرنسي قام في مطلع شبابه برحلة استمرت ثلاث سنين إلى المناطق الشمالية من الصحراء الكبرى. من مؤلفاته: «استكشاف الصحراء، طوارق الشمال» الذي نال عليه تكريمًا من الجمعية الجغرافية.

[٤٥] البربر Berber، البرابرة Berabra: يستخدم ناختيغال هذا الاسم بدلالة عامة ليعني المتحدثين بالبربرية (الأمازيغية) وهم من أقدم الشعوب الأفروآسيوية في شمال أفريقيا، وهو يستخدم هذا الاسم هنا في سياق حديثه عن أقوام زنجية يعتقد بأصولها البربرية.

[٤٦] البجا Baja (البجاة): شعب أفريقي من السودان بين نهر النيل وساحل البحر الأحمر، ينتشر من حلايب شمالًا إلى مَصوَّع جنوبًا.

[٤٧] زَغاوة Zaghawa: قبيلة أفريقية بين السودان وتشاد، يصاهرون التُّبُو، واسمهم الأفريقي «بيري». من مدنهم أنكا (عنقا) في السودان، وباهية في تشاد.

[٤٨] Sahara and Sudan, p. 171. وقد ساهمت هذه التحديدات الجغرافية والعِرقية — لاحقًا — في وضع الخرائط السياسية الأوروبية لدول شمال أفريقيا كما هي معروفة الآن.

الجنوبيين، والطوارق، والعرب المقيمين، والعرب الرحل، والبربر الشماليين، والبربر الرحل، والأرقاء والأحرار من بُرنو والهَوسا، والزَّغاوة. أما الفزازنة (نسبةً إلى فزَّان) فإنهم يبدون بالنسبة له: «غير محدَّدي الهوية ولا ينتمون إلى أي من هذه المجموعات»، وإذا كان من الممكن لهذه المجموعات أن تندرج بشكل ما تحت اسم «الليبيين» فلأن هذا الاسم بالغ المرونة من الناحية التاريخية، وهو قد يشمل شمال أفريقيا، كما قد يشمل القارة بأسرها — باستثناء مصر — وفقًا لزمن استخدامه، أما أثناء الحديث عن «الصحراء الليبية» فإن الدلالة تذهب مباشرة إلى ذلك الجزء من الصحراء الكبرى الذي يقع غرب النيل ويتلاشى تدريجيًّا كلما اتجهنا غربًا وصولًا إلى الأطلسي. وبعبارة أخرى تبدو الصحراء الليبية كما لو كانت اصطلاحًا تاريخيًّا (تعبره المسارات العرقية واللُّغوية) قبل أن تكون اصطلاحًا جغرافيًّا، أما فزَّان فإنها الصورة الجغرافية المصغرة عن الكِيان التاريخي للصحراء.

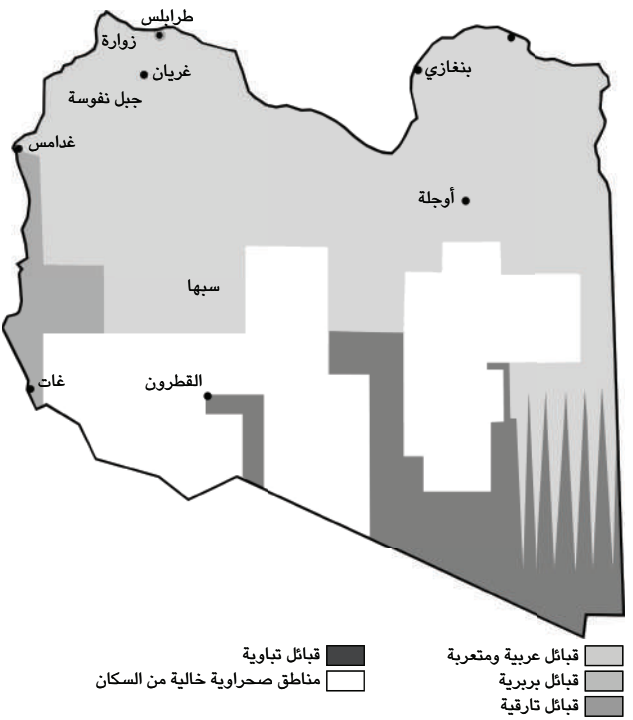

النسيج اللُّغوي الاجتماعي في ليبيا.

وبالعودة إلى الخليط الناختيغالي في فزان فإن المجموعات العرقية تبدو وقد توطنت الصحراء قادمةً إليها من موطنها الأم. يمكننا الحديث عن أغادس بالنسبة للطوارق، وجبال الأطلس بالنسبة للبربر. أما الأرقاء والأحرار الزنوج فهم قادمون من بُرنو، بينما كان الزَّغاوة وما زالوا بين دارفور وتشاد، في حين أن العرب يشكلون الجسم الديموغرافي للحوض الأفروآسيوي فيتوطنون شمال أفريقيا وينتشرون في جيوب قبلية على امتداد الصحراء. والفزازنة عرب لا يخلون من تأثيرات أفريقية. إن المجموعة الوحيدة التي يمكننا استثناؤها هنا هي التُّبُو الذين لا تشير أيٌّ من المصادر التاريخية — على الإطلاق — إلى مغادرتهم الصحراء، منذ أن توطنوا مرتفعات تبستي.

الفصل الثاني

التكوين الاجتماعي والأعراف

تشكل قبائل التُّبُو مجتمعًا عشائريًّا ينتشر في محيط اجتماعي متصل يمتد من شرق السودان فجنوب ليبيا إلى شمال تشاد فالنيجر، إلا أنهم يتركزون على نحو واضح في شمال تشاد، وتنحدر مواطن عشائرهم غربًا باتجاه النيجر ملازمةً مرتفعات تبستي التي تذهب أرجح الفرضيات إلى أن اسمهم مشتق منها بمعنى «أهل الجبل».

يدين التُّبُو بأسرهم بالإسلام، بالرغم من الحملات التي استهدفتهم بالتنصير عن طريق إرساليات مموَّهة تتخذ من البعثات الإنسانية والاجتماعية والدراسية مدخلًا تتوغل منه بينهم.

(١) التكوين الاجتماعي

يقدر عدد التُّبُو بأكثر من ٣٠٠٠٠٠ نسمة، وهو إحصاء تقديري كان متداولًا بين أبناء التُّبُو في أواخر القرن العشرين، ويصل عدد قبائلهم إلى إحدى وثلاثين قبيلة، هي:

(١) آرْنَا، (٢) أَدِرْكا، (٣) أَضُبَيًّا، (٤) أَمَوِيَّاهْ، (٥) أَهِدَّهْ، (٦) بِشِرَاهْ، (٧) تَاوْيَاهْ، (٨) تِدِمِيًّا، (٩) تْرَامَاهْ، (١٠) تْرِنْدِرَا، (١١) تَرْصِيَاهْ، (١٢) تَزَرْيَاهْ، (١٣) تُزُبَاهْ، (١٤) تْشُوَدَهْ، (١٥) تِكا، (١٦) تُمارة، (١٧) تُمُرْتِياهْ، (١٨) دُرْدَكِشي، (١٩) زُيَاهْ، (٢٠) صَرْدُكِيا، (٢١) ضِرْسِنَا، (٢٢) غُبَدَه، (٢٣) كَاسَهْ، (٢٤) كْرَاسا، (٢٥) كُصُضَاهْ، (٢٦) كُنَّا، (٢٧) مَاضَاهْ، (٢٨) مَاضَنَا، (٢٩) مُكُّدَاهْ، (٣٠) هُرْتُنَاهْ، (٣١) هُكْتِيَا.

وينقسم التُّبُو إلى مجموعتين كبيرتين تنصهر فيهما هذه القبائل، ومن السائد اجتماعيًّا بين قبائل هاتين المجموعتين القول بانتمائهما إلى «أصل واحد»، وهما:

- تِدا Teda: ويبلغ عدد أفرادها حوالَي ٥٠ ألف شخص، ويمارسون الرعي والتجارة بين قبائل ليبيا وتشاد والسودان. ولهجتها تِدَگا، أو لسان التدا، ويسمُّون أنفسهم نسبةً إلى لغتهم: تدگدا Tedagada أي الذين يتكلمون التدگا.
- دَزا Daza: وهي العشيرة الأكبر، إذ يبلغ عدد أفرادها حوالَي ٢٥٠ ألف شخص. ويمارسون التجارة بين قبائل الصحراء، بالإضافة إلى الرعي، متنقلين وراء مواطن الكلأ والماء في جنوب الصحراء، حول سفوح تبستي وفي النيجر. ولهجتها دَزَگا، أو لسان الدزا، ويسمُّون أنفسهم نسبةً إلى لغتهم: دَزَگدا Dazagada أي الذين يتكلمون الدَّزَگا.

كما تقطن قبائل دُوْزَهْ منطقة فايا،[١] وهم أقرب إلى التُّبُو، أو لنقُلْ — بعبارة أدق — هم عِرق انتقالي يمثل حلقة وسطى بين التُّبُو والأعراق المجاورة لهم، وهم — في الوقت الحالي — حلفاء التُّبُو وأصهارهم، بحسب التقاليد التُّبُوية التي تمنع زواج الأقارب حتى الجد السابع. كما أنهم يتكلمون لهجة دَزَگا، بينما يتحدث بعضهم لهجة تَدَگا، وفقًا لعَلاقاته القرابية وقرب استيطانه إلى إحدى المجموعتين.

(٢) التقسيم الطبقي

عُرف التُّبُو تاريخيًّا بأنهم بدو رحل يمتهنون الرعي، وبالرغم من صلات المصاهرة والتحالف التي تجعل قبائل التُّبُو كتلةً عشائرية متميزة من ناحية التكوين الاجتماعي إلا إنهم ينقسمون تحت هذه المظلة الاجتماعية الكبيرة إلى عدة وَحَدات بحسب خاصتهم من المراعي وممتلكاتهم من قطعان الإبل والمواشي، من جهة، وبحسب انتماءاتهم القبلية التي تؤهلهم مسبقًا لتبوُّء مكانتهم ضمن الفئات الأربعة التالية:

(١) الأعيان: ويكون مصدر ثرائهم من التجارة، إلا أنهم يمثلون بشكلٍ ما أرباب عمل بقية التجار، ونادرًا ما يسافرون.

(٢) التجار: وهم طبقة أدنى من الأعيان، إلا أنهم يمثلون قبائلهم أثناء سفرهم للتجارة ولقائهم بالقبائل المجاورة والمناطق المتاخمة.

[١] من مدن شمال تشاد، وتسمى أيضًا فايا لارغو.

(٣) الفلاحون: وهم قليلو العدد نسبة إلى التجار.

(٤) الحدَّادون: وهم أيضًا قليلو العدد، والحدادة مهنة محتقرة لدى التُّبُو، إلا أن الحدادين مُهَابون لارتباطهم في اعتقاد التُّبُو بالسحر والقدرة على استنزال القوى فوق الطبيعية.

(٥) المغنُّون: وهم الأقل عددًا بين الفئات السابقة، وغالبًا ما يكون المغنون من فئة الفلاحين.

(٣) وصف التُّبُو

يميل معظم الرحَّالة والجغرافيين إلى الاتفاق على تنميط سلوك التُّبُو الفردي والاجتماعي ضمن سلسلة من السمات النفسية والسلوكية التي تميزهم عن غيرهم من الأقوام المجاورة، مثل: المكر والاحتيال والأنانية وعدم الثقة في الآخرين والغدر والغش والتحلل من القيم والمثل، وإلى جانب هذه السمات يوصفون أيضًا بمقابلاتها، مثل: الحرية وعدم الخضوع والحيوية والنشاط والاعتماد على الذات والصبر والتدبر.

لا شك أن بعض هذه السمات كان نتيجة ملاحظة مباشرة أو نقلًا عن سكان الصحراء ممن جمعتهم بهم التجارِب أو التجارة، أو كانوا ممن أغاروا عليهم أو تعرضوا للإغارة منهم، وفي كل الأحوال لا يختلف اثنان على أن تنميط السلوك بتعميم سمة ما على شعب بأكمله هو أمر خاطئ تمامًا لأنه ينزع عن الموصوفين سمة التفاوت في الفروق الفردية، بالرغم من أن غلبة البيئة الصحراوية القاسية تترك أثرها دون شك.

ويبدو التُّبُو عند هورنمان «كما لو كانت لديهم طاقات طبيعية هائلة لا يملكون الفرصة لاستخدامها، فهم محاطون بالشعوب البربرية والمسلمين، ويتهمهم العرب بأنهم سيئو الظن غادرون مخادعون، ولهذا فإن أهل فزان لا يسافرون فرادى خوفًا من بطشهم.»[٢]

أما ريكلوس فيرى — معجبًا بهم دون أن يراهم — أن «الضرورة — وهي معلم عظيم — طورت قدراتهم الذهنية وشحذت حواسهم. فهم يجدون طريقهم عبر برية غير مطروقة أبدًا بنوع من الإلهام غير المفهوم بالنسبة إلى الأوروبي، وهم يُظهرون

[٢] هورنمان. ص١١٧، انظر: ٤-١-أ.

— في جميع الظروف — مهارةً وبراعةً مذهلتين متَّسمتين بقدر كبير من الفصاحة والمكر والابتكار.» ولكنه لا يتردد في القول أيضًا: «التباوي مرتابٌ دائمًا.»[٣]

وفي رحلته إلى السودان مرورًا بهم يقول الرحَّالة المصري حسنين إنهم: «أهل جِد وعمل ولكنهم شديدو السذاجة في نظام معيشتهم وتفكيرهم.»[٤]

ويصفهم بول مارتي قائلًا إن الرجل من التُّبُو: «يعمل في القوافل أو يشارك في عمليات النهب. إنه إنسان ماكر ذو حيوية، يحب الكسب، يعيش متنقلًا أكثر مما يعرف الاستقرار، ولا يمثل كوخه سوى مرفأ يرجع إليه بين رحلتين.»[٥]

(٤) سلطان التُّبُو (دَرْدَيْ)

تعتمد قبائل التُّبُو في تحديد مرجعيتها الاجتماعية على تداول المشيخة (السلطنة) بين القبائل المعروفة، والشيخ أو السلطان (دَرْدَيْ Dardai) الذي يئول إليه التحكيم يصبح مرجعًا تعود إليه جميع القبائل، وإليه تحتكم من أجل الفصل بين النزاعات والاستشارة، فهو من الناحية الواقعية أقرب إلى القاضي، إذ لا يمارس غير ما ذكرنا من سلطات، ما لم يتميز بمظهر من الهيبة (كاريزما) تؤهله لقيادة شيوخ وأعيان القبائل، وتمنحه سلطةً تُقابَل بالولاء من أبناء التُّبُو، كالسلطان شهاي مثلًا،[٦] ولا يتم استبدال السلطان إلا بعد وفاته، بينما يتوافق الجميع عادةً على تسمية خلفه في وقت مبكر، فإذا انتقلت السلطنة إلى قبيلة أخرى يصبح شيخها سلطان جميع القبائل تلقائيًّا، وهكذا.

وينحصر تداول المشيخة بين ثلاث عائلات من قبيلة تمارة، هي:

- لاي دُگا (أحفاد لاي).
- أَرْدِي دُگا (أحفاد أردي).
- أَرَمِي دُگا (أحفاد أَرَمِهْ).

---

[٣] ريكلوس. ص٤٦٩، انظر: ٤-١-ب.

[٤] حسنين. ص١٤٩، انظر: ٤-١-ج.

[٥] مارتي. ص٣٨.

[٦] انظر: ٤-٢.

وكان الأتراك العثمانيون قد سعوا إلى السيطرة على التُّبُو باعتبارهم أول من يتوطن جنوب فزان التي كانت تحت سيطرتهم، كما أن انصياع قبائل التدا يفتح الطرق أمام قوافلهم لاختراق مجاهل أفريقيا، وحاولوا بادئ الأمر أن يعينوا مندوبًا عنهم برتبة «قائمقام»، ولكن التُّبُو رأوا فيه بديلًا عن شيخهم أو سلطانهم القبَلي الذي جرت تقاليدهم على اختياره من بينهم، فرفضوا القبول بهذا الأمر، واقترح الأتراك في هذه الحالة أن يختار التدا بين القبول بشيخ من بينهم يكون معينًا من حكومة الولاية في طرابلس، أو التدخل العسكري وإجبارهم على ذلك. ولم ينته التوتر بين التُّبُو والأتراك إلا بعد أن قام التدا بالانفتاح على الحركة السنوسية الموالية للأتراك، وأصبحت مرتفعات تبستي تدين لها بالولاء، فشكلت لهم بذلك نوعًا من الغطاء الديني والحماية الضمنية.

وبعد موت السلطان شهاي (وهو من قبيلة تمارة من فرع التدا) واجه خلَفُه صالحٌ توترًا مشابهًا مع الفرنسيين الذين كان يفضلون تعيين الولاة من قِبلهم وبمعرفتهم مباشرةً، ولكن إصرار التدا على اتباع تقاليدهم، بالإضافة إلى مَنَعتِهم واحتمائهم الدائم بمرتفعات تبستي، من جهة، وعدم إقدام الدَّردَي على إثارة قلاقل كبرى في وجه الفرنسيين، من جهة أخرى، جعل هذا التوتر ينتهي تدريجيًّا إلى رضوخ الفرنسيين والتغاضي عن اختيار التدا.

إن العداء الذي يواجه به التُّبُو كل سلطة مركزية (سواء في فزان أو طرابلس، أو في الجنوب) كان سمةً من سماتهم على الدوام، وجزءًا من تقاليد المنَعة والاستقلال التي حافظوا عليها عبر التاريخ.[٧] وعلى سبيل المثال، فإن باشا طرابلس علي باشا بن محمد (حكم بين سنة ١٧٥٤ وسنة ١٧٩٣م) حاول إخضاع التُّبُو وإجبارهم على القبول بسلطته لكنه فشل، فأرسل لهم سنة ١٧٨٨م حملة تأديبية ألحقت بهم الهزيمة، ليعودوا إثرها إلى الاحتماء بمرتفعات تبستي ومناوأة الباشوية من جديد. ثم قام يوسف باشا القَرَمانلي (حكم بين سنة ١٧٩٥ وسنة ١٨٣٢م) بإرسال حملة تأديبية كبيرة ضدهم لاستئصال

[٧] إن منعة جبال ومرتفعات تبستي تمنح السكان استقلالًا كاملًا ضد أي سلطة خارجية، وقد كان المكتهفون أو التروغلوداي Troglodyte الذين أتصور أنهم سبقوا التدا يناوئون سلطة غرمة (جرمة) المركزية، وقد بادلتهم حالة العداء على النحو الذي نجد وصفه لدى هيرودوت. انظر: ليبيا القديمة (مادة: المكتهفون).

شأفتهم، ووصلت حملته إلى مرتفعات تبستي سنة ١٨٠٥م إلا أن التُّبُو ألحقوا بها هزيمة نكراء وقضَوا على معظم جنودها.

(٥) شريعة الكُتُبا

تحتكم قبائل التُّبُو إلى شريعة مكتوبة تُعرف باسم **كُتُبا**، أو كُتُما، كما تسمَّى: تُگي، أو تُگي تِدا، ويُطلِق عليها المثقفون من أبناء التدا اسم «دستور التُّبُو»، وقد وضعها السلطان شهاي بوغر بالاستناد إلى أحكام الشريعة الإسلامية، لتنظيم معظم المعاملات الضرورية في مجتمع التُّبُو الرعوي، وخاصة ما يقتضي منها إصدار أحكام قضائية محددة، كما في حالات فض المنازعات والاقتصاص من القاتل وإلحاق العقوبات المادية بمرتكبي الجُرم. وقد كُتِبت شريعة الكُتُبا باللغة الفرنسية، وما زالت نسختها الأصلية موجودةً حتى هذا الوقت وهي في حراسة أعيان التدا.

(٦) فنون التُّبُو الفولكلورية

تتميز فنون التُّبُو الفلكلورية وتراثهم في الغناء والموسيقى بسمات محلية تجعلها مختلفة عما عند غيرهم من قبائل الصحراء الكبرى، وإن تشابهت الأنماط العامة بهذا الشكل أو ذاك. ومما يُؤدى من هذه الفنون حتى اليوم:

- «هامي»: وهو فن شعري غنائي مادته المدح والهجاء، ترافقه إيقاعات الطبول.
- «شيلي»: وهو فن شعري غنائي تؤديه عجائز التُّبُو في مناسبات الزواج والختان.

أما الشعر مجرَّدًا — أي دون إيقاعات ورقص — فهو من سمات الرجولة عند التُّبُو، ويؤدَّى بنمط غنائي خفيف وتتوزع أغراضه كما في الشعر العربي بين الفخر والتباهي والترويح، ونادرًا ما يعمِد الشاعر إلى الغزل.
ومن آلات الطرب عند التُّبُو:

- «كيدي»: طبل يُعرَف في أجزاء أخرى من الصحراء وشمال أفريقيا باسم «دَنْگا». ويؤدَّى على إيقاعاته أنماط من الفنون الغنائية التي يرافقها الرقص عادةً. ومن هذه الأنماط: «يوري» وهي رقصة حرب إيقاعية، و«طزًّا» وهي رقصة ترافق

مواكب الأعراس، و«كيدي أدبا» وهي رقصة خاصة بالنساء والفتيات على شكل دائرة.

- «نقارة»: طبل أصغر من «كيدي»، وإيقاعاته أدق وأكثر رنَّةً، ويُستخدم عادةً في الإعلان عن المناسبات، أو لدعوة القبيلة للاجتماع، أو كنفير للاستعداد للحرب.
- «شگاني»: آلة وترية تشبه الربابة، تُصنع من جريد النخل، وقرع صحراوي مجفف أو إناء معدِني، ووترين متجاورين.
- «كيكي»: آلة وترية تشبه الكمان، تُصنع من الخشب، وربما أُضيفَ لها أكثر من وترين.[٨]

(٧) أعراف الزواج

لا تكاد أعراف وتقاليد الزواج عند التُّبُو تختلف عن غيرهم من سكان الصحراء الكبرى، ولكن تقاليدهم تمنع زواج الأقارب حتى الجد السابع، وهي تشترط اتفاق أسرتي الخطيبين وقبيلتيهما، وألا يكون بين الطرفين ما يمنع عقد الزواج، كالثأر مثلًا. وتتولى أسرة الشاب الراغب في الزواج القيامَ بكل المراسم المتوقعة، دون أن يشترط ذلك لقاء الشاب بالفتاة أو محادثتها.

إن الاتفاق على المهر هو الخطوة الأولى، ويتقاضاه والدا الخطيبة وأقاربها من الأعمام والعمات والأخوال والخالات، أما الملبوسات والحلي فيتم إرسالها على جمل في يوم يسمى «العلغة» الذي يسبق يوم الوليمة، ثم يُحجر على الفتاة وتُمنع من الخروج، في انتظار «الزفة» التي يكون موكبها من الجمال والمغنين وقارعي الطبول وحاملي المباخر، وبين الفينة والفينة يتوقف الموكب فتحيط نصف دائرة من النسوة بأحد الراقصين وترافقه دقات الطبول إلى أن يُتمَّ رقصته، وهكذا حتى يصل الموكب إلى البيت حيث ينتظر العريس.[٩]

[٨] حوارات المؤلف مع قبائل التُّبُو، كما تمت الاستعانة بمخطوط «مدخل إلى قبائل التُّبُو» من تأليف عبد السلام اللهي.

[٩] المرجع السابق.

ومن عادات التُّبُو أن يقوم العريس بالوقوف على عتبة البيت وجلدها بسَوط في يده اليمنى اعتقادًا منهم بأن ذلك يطرد الأرواح الشريرة، ومن عاداتهم أيضًا أن يعتكف العروسان فلا يخرجان من بيتهما طوال الأسبوع الأول.

(٨) الختان

الختان «جراحة يُقطَع فيها جزء من القُلْفة، إما قربانًا للخِصب أو تمييزًا اجتماعيًّا للمختونين. عرَفه الليبيون القدامى والمصريون والفينيقيون»،[١٠] ويُرجَّح أن التُّبُو قد عرَفوه منذ القدم، ثم أقرَّهم الإسلام على ذلك، ولا تختلف طقوس ومراسم الختان عند التُّبُو عما عند غيرهم من قبائل الصحراء الكبرى.

(٩) أسلحة التُّبُو التقليدية

لاحظ الرحَّالة ف. هورنمان أثناء زيارته للتُّبُو سنة ١٧٩٧م أن أسلحتهم «رمح طوله ستة أقدام وسكين طولها ما بين عشرة وعشرين بوصة يعلقونها على الكتف الأيسر ويلبسون حول وسطهم حزامًا من الجلد يتدلى منه جراب عرضه ثلاث بوصات»،[١١] ويمثل هذا الوصف محاربًا من التُّبُو يتزنَّر برمحه الذي يُعتبر أشهر أسلحة التُّبُو التقليدية، وينقسم إلى أنواع وأطوال حسب مسافة الرمي وطرق الاستخدام.

كما استخدم التُّبُو القوس للمسافات البعيدة، والخناجر للاشتباك. أما أخطر سلاح تقليدي لديهم فهو الذي يطلقون عليه اسم «شِنگر مِنگر» Shangermanger وهو مخطاف من أسلحة الرمي عن بعد، ويتميز بشكله الدائري وعدد النتوءات الحادة البارزة منه، وغالبًا ما تؤدي الإصابة به إلى الموت أو الإعاقة.

(١٠) وسوم التدا وملكياتهم

تُحدَّد ملكيات أبناء التُّبُو ومستويات ثرائهم بما لديهم من قطعان، وتُعادَل قطعان الإبل بقطعان الغنم حسب أعمارها، فالحُوار مثلًا يعادل ٤ شِياه، والبعير المكتمل النمو يعادل ١٥ شاة، وهكذا بالنسبة لتقدير بقية أعمار الإبل.

---

[١٠] ليبيا القديمة، مادة: ختان.

[١١] هورنمان: المصدر السابق.

القبيلة	السمة	الرمز
(١) أَدِرْگا	دُرُدْرُو	
(٢) آرْنَا	أَرْتُكُنْ	
(٣) أَضُبَيَّا	واصَهْ	
(٤) أَمَوِياهْ	مُزْرِي	
(٥) أَهِدهْ	يُغُو	
(٦) بِشِرَاهْ	وَاصَهْ	
(٧) تَاوْيَاهْ	مُزْرِي	
(٨) تِدمِيا	دُرُدْرُو	
(٩) تْرَامَاهْ	دَرْبَلايْ	
(١٠) تْرِنْدِرَا	يُغُو	
(١١) تَرْصِيَاهْ	مُزْرِي	
(١٢) تَزَرْيَاهْ	أَرتُكُنْ	
(١٣) تُزُبَاهْ	دُرُدْرُو	
(١٤) تْشُوَدَهْ	مُزْرِي	
(١٥) تِگا	نِي	
(١٦) تُمارة	مُزْرِي	
(١٧) تُمُرْتِياهْ	وَاصَهْ	
(١٨) دُرْدَكِشي	أَرتُكُنْ	
(١٩) زُيَاهْ	أَرْتُكُنْ	
(٢٠) صَرْدُگِيا	أَرْتُكُنْ	
(٢١) ضِرْسِنَا	تُمْرِي	
(٢٢) غُبَدَه	مُزْرِي	
(٢٣) كَاسَهْ	مُزْرِي	
(٢٤) كْرَاسا	تْرُهِي	
(٢٥) كُصُضَاهْ	مُزْرِي	
(٢٦) گْنا	أَغَرَا	
(٢٧) مَاضَاهْ	أَنِگْدَهْ	
(٢٨) مَاضَنَا	نِي	
(٢٩) مُگْدَاهْ	زَرْ	
(٣٠) هُرْتْنَاهْ	دُرُدْرُو	
(٣١) هُكْتِيَا	گُرْتِي دِنْگا	

وسوم الإبل لدى قبائل التدا.

وتتميز كل قبيلة بوسم خاص تضعه على مكان محدد من إبلها يختلف في شكله أو مكان كَيِّه عن الوسوم الأخرى، حيت تُكوى الإبل بسِمة متفق عليها على جانب البعير كالفخذ أو العضد أو الرقبة.

ولا تختلف أغراض الوسم عند التُّبُو عن غيرها من القبائل البدوية في أفريقيا وآسيا، فهي وسيلة تحديد ملكية القبيلة، وبالتالي موطنها، ما يعني ضمنًا تحديد تحالفاتها وأنسابها وقراباتها، وتحديد الملكية على هذا النحو وسيلة عرفية لا يجوز الإخلال بها، كأن تَسِمَ إحدى القبائل بغير وسومها المتعارف عليها مثلًا.

وتتشابه بعض وسوم عشائر التُّبُو إذ يَختزل عددٌ منها رسمَ الجمل واقفًا أو باركًا، كما في سمة «دُرُدْرُو» 𐪇 التي تستخدمها أربع عشائر بتنويعات مختلفة لا تشبه إحداها الأخرى، أو سمة «مُرزي» 𐪋 التي تستخدمها سبع عشائر بتنويعات مختلفة أيضًا، وهو ما يدل على اختلاف ملكية الإبل من جهة، وعلى ما بين هذه العشائر من روابط من جهة أخرى كالتحالف أو الاتفاق في النسب أو الاشتراك في الموطن.

الفصل الثالث

تِدَگا من منظور تاريخ اللغات

(١) إشكالية التدوين

لغة التُّبُو غير مدونة بعدُ، وقد ظهرت محاولات عدة لكتابتها بحروف لاتينية، لكنها لم تَلقَ حظًّا من الانتشار لعدة أسباب أهمها يعود إلى أن النقحرة Transliteration باعتماد الحروف اللاتينية إنما تنزع الألسنةَ الأفريقية من محيطها اللُّغوي والاجتماعي والتاريخي لتوطِّنَها قسرًا في بيئة غريبة عنها.

في الجدول التالي أقدم بديلًا ينتمي إلى معتقَد ولسان قبائل التُّبُو، وهو يتوافق مع أساليبهم في تلفظ الكلمات، وتَمثُّل الدلالات، بالإضافة إلى ما فيه من استلهام التراث والمعتقد، خاصة وأن هذه القبائل تَدين بأكملها بالإسلام منذ قرون، ويمكن للرسم القرآني المنمَّط أن يمثل لسان التُّبُو خير تمثيل، مع إضافة ما يتطلبه ذلك من علامات صواتية ضمن هذا النظام الموحد، وهي علامات تستخدمها لغات أفريقية أخرى تجاور التُّبُو.

العربية	صنغي	تماشق	كانوري	تِدَگا/دَزَگا	النقحرة
أ	أ	أ	أ	أ	a
ب	ب	ب	ب	ب	b
			پ	پ	p
ت	ت	ت	ت	ت	t
ث					ṯ

العربية	صنغي	تماشق	كانوري	تِدَگا/دَزَگا	النقحرة
				چ*	č
ج	ج	ج	ج	ج	j
ح					ḥ
خ	خ	خ			ḫ, kh
د	د	د	د	د	d
ذ					ḏ
ر	ر	ر	ر	ر	r
ز	ز	ز		ز	z
س	س	س		س	s
ش	ش	ش		ش	š
ص		ص		ص	ṣ
ض		ض		ض	ḍ
ط		ط			ṭ
ظ		ظ			ż
ع					ʿ
غ		غ		غ	ġ
ف	ف	ف	ف		f
ق		ق			q
ك	ك	ك	ك	ك	k
گ		گ	گ	گ	g
ل	ل	ل	ل	ل	l
م	م	م	م	م	m
ن	ن	ن	ن	ن	n
	◌ٜ			◌ٜ	ñ

العربية	صنگي	تماشق	كانوري	تِدَگا/دَزَگا	النقحرة
ه	ه	ه	ه	ه	h
و	و	و	و	و	w
ي	ي	ي	ي	ي	y

* يُكتب أيضًا مفككًا إلى التاء والشين: تْشَهْ، بتاء مسكنة وشين محركة بحسب حركة ما يليها.

ويُعبر بالصوائت القصيرة عن الإمالة في بداية الكلمة بالحرف (ا) خالٍ من الهمز، وهو يقابل e، ويُعبر بالهمزة المفتوحة (أَ) عن a، والهمزة المضمومة (أُ) عن u، والهمزة المكسورة (إِ) عن i. أما في وسط الكلمة فإن هذه الحروف تقوم عادةً مقام الحركات العربية المعروفة.

وتخلو لغة التُّبُو من حرف الثاء والحاء والخاء والذال والطاء والظاء والعين والفاء والقاف، ويتلاشى حرف الصاد في السين، ونلاحظ أن المفردات البادئة بحرف الفاء في العربية تبدأ في التباوية بحرف الهاء كما في **هُكُرْ**: فِكْر، **هِنْجَلَهْ**: فنجان. مثلما يتحول حرف الصاد إلى سين: كما في **سبر**: صبر، وحرف الطاء إلى تاء، كما في **تري**: وهي محذوف كلمة طريق.

أما الظاهرة التي أثبتناها في معظم ما ورد من الأسماء، وكذلك الأفعال في إفرادها (عزلها) عن السياق، فهي انتهاؤها بما يمكن أن نسميه هاء السكت (أو الوقف)، وهي هاء خفيفة جدًّا في تذوقها تنتهي بها الكلمات المفردة ولكنها لا تثبت في الوصل، (كما في يُزُهْ: شمس، وهي متحولة من «يضيء»، وتنطق «يُزُ» بدون الوقف على الهاء كما في قولنا «**يُزُ تْشُلُكُهْ**»: غروب الشمس).

(٢) إشكالية التصنيف

تُصنَّف لغة التُّبُو بفرعيها (تِدَگا ودَزَگا) ضمن العائلة الصحراوية من المنظومة النيلية الصحراوية، أما التصنيف الأقدم من ذلك فقد اعتبر لغة التُّبُو جزءًا غير محدد الشعبة من مجموعة اللغات الحامية، وهو تصنيف ظل سائدًا حتى وقت قريب، وكان يُعتبر أساسًا في تمييز لغات الأقوام الأفريقية المجاورة.

يذكر ريكلوس أن لغة التُّبُو (التِّدا الشماليين والدَّزا الجنوبيين) تنتمي إلى شعبة حامية تجاور لغات كانِمبو[١] وكانوري[٢] وزَغاوة[٣] وبايلي[٤] وأقوام زنجية وشبه زنجية أخرى تستوطن حوض تشاد وتعيش في وسط وشمال السودان.[٥] وقد حاول أن يفسر ما لاحظه من تنافر فِيلولوجي بين هذه الأعراق بما أسماه «تعاقب السمات اللُّغوية» مؤكدًا أن لغة التدا تظل «نقية وأكثر أصالةً» من بقية الأقوام المجاورة. وهي خاصية كان قد أثبتها ناختيغال وأعاد ريكلوس تأكيدها ذاهبًا إلى إمكانية القول أن لغة التِّدگا لا تربطها صلة بالحامية أو المجموعات الزنجية.

لقد جعلَت عزلةُ مرتفعات تبستي، مهدُ التُّبُو، لغتَهم معزولةً منفردةً، ويمكن الاستعانة بالكثير من الشواهد الفِيلولوجية لإثبات أن هذه اللغة (أو تدگا تحديدًا) تمثل «نَواة عائلة لُغوية» كما قال ريكلوس، أو أنها «نموذج لُغوي بُدائي» ربما يمثل تلك النواة المجهولة، ولكن الأرجح في تصوري أنه نموذج تفرعت عنه شُعَب لُغوية انتشرت في دارفور، وواداي، وكانِم، وبُرنو، وباگرمي، واللغات الصغرى في معظم وسط السودان. وبعبارة أخرى فإن اللغات التي تطورت عن هذه النواة أو نَموذج هذه النواة بشكل أدق، أي التِّدگا، انتشرت واتسع نطاقها لتُعرَّف لاحقًا باعتبارها شعبة رئيسية من المجموعة الحامية.

إن ما تدل عليه الشواهد اللُّغوية التي يمكن تتبعها لدى لغات الأقوام الأفريقية بدلالة «أصالة» الناطقين بها، وهي كلمة أخرى للتعبير عن «القِدم» و«العزلة»، هو أن التدگا تحتوي على مستوًى أول لم يخضع للتحوير أو التأثر أو الاستعارة، مثلما حدث لاحقًا عن طريق الاستعارة من العربية والفرنسية؛ هذا المستوى الأكثر نقاءً من الناحية

---

[١] كانِمبو Kanembu: يوجدون شمال شرق بحيرة تشاد وفي باگرمي، وهم مؤسسو إمبراطورية كانِم-بُرنو، ويتحدثون لغة كانِمبو التي تُعتبر لهجة من الكانوري، ويَدينون بالإسلام.

[٢] كانوري Kanuri: يعيش الكانوري شرق بحيرة تشاد في المناطق الحدودية بين تشاد والنيجر ونيجيريا، وهي المناطق التي مثلت قديمًا إمبراطورية بُرنو، وهم مسلمون. وتتفرع لغة الكانوري إلى عدة لهجات محلية.

[٣] مر التعريف بها، انظر: ١-٣.

[٤] لهجة من زَغاوة، وقد تُستخدم مرادفًا لها أثناء الحديث عن غرب دارفور وشرق برداي.

[٥] ريكلوس: ٤٦٨.

المعجمية قمت بمقابلته بأقدم اللغات المدونة في العالم، أي السُّومَرية،[٦] ووجدته يستجيب بشكل كبير للمقارنة التأثيلية، على ما سيأتي بيانه، بما يُثبت لنا أن التدگا تعود إلى الزمن نفسه الذي نشأت فيه اللغة السومرية في بلاد ما بين النهرين، وخير دليل على قِدم التدگا وأصالتها أن عددًا من مفرداتها تتضاءل لفظًا إلى مستوى الفونيم المجرد، والفونيم المجرد لا يمثل معنًى لُغويًّا محددًا إلا في أكثر الحالات اللُّغوية بُدائيةً، وهو ما نعثر عليه بوضوح في اللغة السومرية. ومن هنا، فإنني لا أتردد في القول بأن التدگا هي أقدم اللغات الأفريقية التي أمكن التدليل عليها حتى اليوم.

وبالرغم من أن تصنيف لغة التُّبُو يئول بها إلى العائلة النيلية الصحراوية، إلا أنني سعيت هنا إلى توظيف نفس المنهج الذي اتبعته في كتاب «ما قبل اللغة، الجذور السومرية للغة العربية واللغات الأفروآسيوية»[٧] لأنجز ثلاثة اختبارات تطبيقية:

الأول: إدراك مدى حقيقة التصنيف الشائع للسان التُّبُو، وأساسه جداول لاندزبرگر في اللغات الأفريقية.

الثاني: إدراك قدْر التآثر والتقارض الذي انخرط فيه هذا اللسان عبر أزمنة مختلفة، وتأصيل المعجم بمعالجة ما يمكن من مفردات لاكتشاف الأطوار التي مر بها حتى استقر على النحو الذي نراه به الآن.

الثالث: مقابلة المَدْوَنَة اللُّغوية بنظيرها الاجتماعي التاريخي، ووضع ما تقود إليه هذه المقابلة من فرضيات حول المسارات المجهولة في توطن قبائل التُّبُو.

---

[٦] لغة سُومَر في جنوب بلاد الرافدين، وهي أقدم اللغات المدونة حتى الآن، وتعود إلى الألف الرابعة ق.م.، وقد استمرت — ضمن حدود ضيقة — حتى القرن الأول ق.م. ثم انقرضت، وأعيد اكتشافها في القرن التاسع عشر، ويعتبرها الباحث جذرًا لُغويًّا يتصل باللغة الأكَّدية وتتفرع عنه منظومة اللغات واللهجات الأفروآسيوية، مفندًا بذلك النظرية القائلة بعزلتها وانحسارها النهائي. انظر: ما قبل اللغة – الجذور السومرية للغة العربية واللغات الأفروآسيوية، دار تانيت، ط١، ٢٠٠٨م.

[٧] صدرت الطبعة الأولى من كتاب «ما قبل اللغة، الجذور السومرية للغة العربية واللغات الأفروآسيوية» عن دار تانيت (طرابلس وتونس)، سنة ٢٠٠٨م. وصدرت الطبعة الثانية عن دار الكتب العلمية (بيروت، لبنان) سنة ٢٠١٣م. وأصدر مركز الدراسات الحضارية البينية طبعة ثالثة سنة ٢٠٢٢م. وعممت مؤسسة هنداوي نشره رقميًّا في السنة نفسها.

(٣) نشأة تِدگا وتطورها عبر التاريخ

يمكننا تمييز ثلاث مراحل تاريخية أساسية في لهجات التُّبُو، بدلالات مفرداتها، كالآتي:

المرحلة الأولى: حتى القرن السابع.

المرحلة الثانية: من القرن السابع إلى أواخر القرن الثامن عشر.

المرحلة الثالثة: من القرن التاسع عشر إلى الوقت الحاضر.

(أ) المرحلة الأولى

وهي مرحلة ضاربة في القِدم تبدأ باستيطان قبائل التُّبُو جبالَ تبستي، وربما قبل ذلك بكثير — أَخْذًا بنظرية صلة التِّدا بقبيلة التِّدامنسي الليبية القديمة — وتمتد حتى القرن السابع أي حتى الفتح الإسلامي وانتشار اللغة العربية في شمال أفريقيا والصحراء.

وتتميز مفردات هذه المرحلة بأنها الأكثر قدمًا، وتعود إلى ما نسميه مفردات الطبيعة (في مقابل مفردات الثقافة)، ونعثر في معجمها على جميع ما يتصل بالحياة اليومية البُدائية من مسميات، خاصةً ما يتصل منها بالبيئة والمستعملات القديمة والقرابة وأنماط العيش الصحراوية كما عُرفت منذ القدم، كما نجد فيها سجلًّا كاملًا عن الحياة البرية التي نفترض أن التُّبُو درجوا عليها منذ أزمنة ما قبل الميلاد.

ويمكن تمييز مقاطع جذرية أوَّلية[٨] في مفردات هذه المرحلة، كما توضح مقارنتها بالسومرية أن أصليةَ وبُدائيةَ لسانِ التُّبُو تشكلت في زمنٍ ما منذ الألف الخامسة قبل الميلاد. وقد اكتشفنا من خلال دراسة عدد من المفردات الأصلية أن هذا اللسان ما زال يحتفظ بمفردات قديمة لم تتغير لفظًا ودلالة، الأمر الذي يتيح لنا افتراض مسارات هجرة مجهولة للمراحل الأولى من نشأة هذا اللسان تبدأ من سومر إلى أفريقيا، أو افتراض مسارات اتصال متناوبة بين شمال الجزيرة العربية وأفريقيا، شرقها وصحرائها، سواء عبر باب المندب، أو صحراء سيناء، والاحتمالان مرجحان حتى الآن بالقدر ذاته. وعلى ما

[٨] المقطع الجذري: مقطع دالٌّ على معنًى قياسًا بوَحَدات الكلام، وهو أصغر الوحدات في سياق الكلام، ويماثل الكلمة في سياق الجملة قياسًا بوحداتها، ويمكن تقريبه إلى مورفيم Morpheme: أصغر وحدة لُغوية مجردة ذات معنًى. انظر: ما قبل اللغة، ص١٩.

تبدو به هذه الفرضية من غرابة في الوقت الحالي، إلا أننا لا نجد ما نفسر به اشتراك اللغتين، التِّدوية والسُّومرية، في حمولة لُغوية بدئية سوى افتراض التواصل أو الانزياح عن موطن مشترك جمَع ذات يوم أسلاف التُّبُو بالسومريين أو «ذوي الرءوس السوداء» كما كانوا يسمُّون أنفسهم.

(ب) المرحلة الثانية

وتمتد من الفتح الإسلامي بدخوله أفريقيا عبر مصر في القرن السابع، إلى القرن التاسع عشر. وفي هذه المرحلة اقترض التُّبُو عددًا كبيرًا من المفردات (أقدِّره بعشرين بالمائة من معجمهم الحالي) من الألفاظ العربية المعبَّر بها عن العقيدة والإيمان والأحكام الشرعية ومفردات الثقافة ذات الارتباط بالمنشأ العربي الإسلامي. وقد خضعت هذه المفردات إلى صيغ التلفظ المحلي التي اقتضاها غياب عدد من الحروف لديهم، مثل حرف الفاء (كما في **هُكُر** وأصلها فِكر)، وحرف القاف (كما في **كُلْكُلِهْ** بمعنى رعد، وأصلها: قَلْقَلَة) ... إلخ.

ومن مفردات هذه المرحلة: **سَلِّي** (صَلِّي): صلاة. **أَلَّهَرْ**: وقت العصر، **نِكَا**: نكاح، زواج، **كُدْرُهْ**: ثمن، قدْر الشيء وتقديره والقدرة على شرائه ... إلخ.[٩]

(ج) المرحلة الثالثة

وهي منذ القرن التاسع عشر إلى الوقت الحاضر. وقد تعرَّض شمال أفريقيا والصحراء في هذه المرحلة إلى موجة متصلة من الرحلات الاستشراقية التي مهَّدت للغزو الأوروبي، الفرنسي على الأخص.

ونلاحظ في هذه المرحلة اقتراض لهجات التُّبُو عددًا من المفردات الفرنسية والمفردات العربية الفصحى والعامية، فقد تسربت إلى لسان التُّبُو عدة كلمات فرنسية، لكنها كلمات يمكن حصرها وعزلها لقلَّتها، كما استمر تأثر لسانهم بالمحيط العربي الذي أصبح أكثر حراكًا وتواصلًا.

[٩] يغيب حرفا الفاء والقاف من السومرية أيضًا، ويتلاشى حرف الصاد في السين، وثمة مظاهر صَواتية عديدة تشترك فيها اللغتان التدوية والسومرية، وهي موضوع مبحث أكوستيكي تطبيقي منفصل.

ومعجم هذه المرحلة هو الأقل عددًا، ولكنه قابل بمرور الوقت لإضافة المزيد من المفردات، خاصة أسماء الأدوات الحديثة كما استقرت في المعجم العربي (الفصيح والعامي) الذي يمثل الآن مصدرًا رئيسًا للاقتراض. ومن مفردات هذه المرحلة **بُنْدُكْ**: بندقية، **بضا**: بضاعة، **كَرَهَا**: سيارة، وأصلها «كرهبة» كما في اللهجة الليبية، **هِنْجَلَهْ**: فنجان. ومن الكلمات الفرنسية **تْشُمْسْ**: قميص، وأصلها Chemise، بالرغم من أن أصل الكلمة الفرنسية عربي صريح. **كْوِيَّار**: ملعقة، وأصلها Cuillére، وهكذا.

ونلاحظ أن لسان التُّبُو بفرعيه (تِدَكا، دَزَكا) اقترض عددًا من مفردات اللغات واللهجات الأفريقية مثل الهَوسا، خاصة المفردات ذات الصلة بالزراعة وأسماء النباتات والأشجار، ويعود السبب — كما هو واضح — إلى أن قبائل التُّبُو لم تعرف الزراعة نمطًا أساسيًّا من أنماط الإنتاج إلا في فترات متأخرة من استقرارها حول سفوح جبال تبستي وفي الواحات القريبة منها، عندما لجأ التُّبُو إلى التوطن بدلًا عن أنماط عيشهم القديمة المتمثلة في الصيد والرعي وحماية القوافل، التي كانت تمثل مصدرًا وحيدًا لأبناء التُّبُو يضمن لهم توفير أساسيات البقاء في بيئة معدِمة تقريبًا لا تتوفر على أدنى شروط الحياة.

(٤) تِدَكا من منظور تاريخ اللغات

كانت الخلاصة الرئيسة لكتاب «ما قبل اللغة» هي إثبات وجود ما أسميته حمولة لُغوية بدئية تبدأ بالسومرية وتنتشر وفق مسارات الانتشار المتحول فتشكل معجمًا طبيعيًّا في جميع لغات المنظومة الأفروآسيوية، بل وما اتصل بها من لغات مجاورة، وقد جعلتُ العربية كما نعرفها الآن — وكما هي في طبقاتها التاريخية — محورَ هذا الانتشار، وذكرتُ في هذا الكتاب أن تتبُّع المقطع السومري يشي بمسارات شتى هاجرت فيها المفردات، تبدلت وتحورت، كمَنت وظهرت، اتصلت وانعزلت، إلى آخر ذلك من أشكال التآثر والتواصل. ولا يتوقف ذلك عند حد التشابهات والتماثلات الصوتية التي يمكن العثور عليها على هيئة حمولة لُغوية بدئية في جميع لغات المنطقة، بل يتصل أيضًا بتشكلات بنيوية أنتجت جزءًا مهمًّا من مفردات المعجم العربي بشكل خاص، والأفروآسيوي بشكل عام.

ولقد ارتأيت هنا أن أُخضِع هذا المنهج إلى ممارسة تطبيقية حتى أرى صحة ما ذهبت إليه في كتاب «ما قبل اللغة» الذي اقتصر على العربية والمصرية القديمة، وكانت الخلاصة الرئيسة هي وجود وانتشار وتحول ما أشرت إليه من حمولة بدئية سومرية، كما ذكرت، في لغة تدگا. الأمر الذي يثبته المَسرد المقارن التالي، وبي ميل إلى تعميم

هذه الفرضية على جميع اللغات واللهجات التي جاورت أو اندرجت أو تأثرت بالمنظومة الأفروآسيوية القديمة:

- (تدكا) أَرْبِي arbi: قبيلة؛ سومرية إرِمْ irm: رجل، جماعة، قبيلة (م ← ب).
- (ت) أُرُهْ uru^h: فوق؛ (س) أرُو uru عالٍ.
- (ت) أَرُّهْ arruh: تيْسٌ، ذكر الماعز. (س) أَرْوَى arua: قربان من الماشية.
- (ت) أَمْبِرِّي $birry^{am}$ جراد؛ (س) بِرْ bir جراد.
- (ت) إِمِّهْ $imme^h$ حجارة؛ (س) إمِي imi طين، لوح طيني.
- (ت) بَارِهْ $bāri^h$ مزرعة؛ (س) بُرُو buru أشجار مثمرة.
- (ت) بُرُّهْ $burru^h$ صيف؛ (س) بُرُو buru صيف، وكل موسم ساخن.
- (ت) بَهْ pa^h أقارب؛ (س) بَا pa أب، أخ.
- (ت) تُكْتى~ tukte حركة الراقص؛ (س) تُتُكْتى~ tutukte طقطق، قرع.
- (ت) تُكْتى~ tukte حركة الراقص؛ (س) تُكْ tuk، تُكُو tuku: عزفٌ، عزفَ.
- (ت) تُيِ tuyi كوع؛ (س) تي ti ضلع، جنب.
- (ت) دَايِهْ $daye^h$ شُرْب؛ (س) دِيدا dida جعة.
- (ت) دَارُه $dāru^h$ لحاف، وشاح؛ (س) دَرَا dàra وشاح، حزام.
- (ت) دِلِي dili عازب، وحيد؛ (س) دِلِي dili عازب، وحيد.
- (ت) سَنْكَا sanga قَصَدَ(نَا)؛ (س) سَنْكَا saĝa قطَعَ.
- (ت) شِگِي šigi ثلج، برَد؛ (س) شِگ šig ثلج، برَد.
- (ت) شَيْ šay رَشَّ؛ (س) شي še أمطرَ.
- (ت) شِيهْ šey مذاق، طعْم؛ (س) شي še طبخَ.
- (ت) صُصْ ṣuṣ قِفْ؛ (س) سِي si وقف.
- (ت) صُهْ $ṣu^h$ رِجْل، قدم؛ (س) سُو su ابتعدَ، بعيد.
- (ت) ضَمَّاهْ $ḍamma^h$ بنت، ابنة؛ (س) دُمُو dumu ابن، ابنة، طفل.
- (ت) كَا ka لغة؛ (س) كَا ka فم، كلام.
- (ت) كا ka لغة؛ (س) گُو gu صوت.
- (ت) كُهْ ku^h فم؛ (س) كَا ka فم، كلام.
- (ت) كيه key أرْسَلَ؛ (س) كِنْ kin رسالة.
- (ت) گُبِهْ $gube^h$ صدْر؛ (س) گَبَا gaba صدْر.

- (ت) gibi قبر، حفرة؛ (س) ŋub خُبْ عمق، جوف.
- (ت) gudeʰ عطشان؛ (س) ŋáda خَدَا جفَّ.
- (ت) guru بعض، جزء، حصَّة؛ (س) guru گُرُو قَسَّمَ، قَطَعَ، وزَّعَ.
- (ت) gugu حُمَّى؛ (س) gig گِگْ مرض.
- (ت) gineʰ لون، شكل؛ (س) gana گَنَا شكل.
- (ت) guni حضر، مدينة؛ (س) ĝin [گِنْ] نْگِنْ استقرار، ثبات.
- (ت) guʰ طعام، قِدْر؛ (س) gug گُگْ خبيز.
- (ت) guʰ طعام، قِدْر؛ (س) gu گُو أكلَ.
- (ت) guʰ حرب، خصام؛ (س) gu گُو، gug گُگْ حرب، خصام.
- (ت) gu العنق مما يلي الحنجرة؛ (س) gu گُو عنق، قفا.
- (ت) ndubeʰ: مأدبة، طعام. (س) niduba نِدُبَا: مأدبة، طعام.
- (ت) nugu نبات شوكي؛ (س) nug نُگ نبات عطري.
- (ت) husu سمكة؛ (س) ŋu خو سمكة.
- (ت) huḍu شروق؛ (س) ŋud خُدْ صباح.

خلاصة هذه الأمثلة هي أن لسان التُّبُو بفرعيه (تدگا ودزگا) لسان بُدائي قديم قِدَم توطن الأقوام الأولى في شمال أفريقيا والصحراء، وقد توطنت فيه المقاطع السومرية المفردة والمثناة كما هي، وإن أصابها بعض التغير في صيغ تلفظها، لكن ذلك لم يخرج بها عن بنيتها الأساسية من حيث الصوامت المتطابقة أو المتشابهة ذات الحيوز المشتركة أو المتوافقة.

وبينما نجد أن مثل هذه المقاطع الجذرية التي تكوِّن العربية الفصيحة في معظم معجمها قد تكونت بالإضافة والإلصاق فشكلت الجذور الثلاثية المعروفة في المعجم العربي،[١٠] فإنها ظلت على حالتها البدئية في لسان التُّبُو، ولا يخفى أن السبب الرئيس وراء ذلك هو عزلة مجتمع التُّبُو ووقوعه على طرَف ناءٍ في مدارات الحراك الرئيسة في الشرق الأدنى وشمال وشرق أفريقيا.

[١٠] انظر: ما قبل اللغة، الفصل السادس، ص٢١٥–٢٣٧.

ونأخذ بعين الاعتبار مسارين رئيسين هنا؛ فلسان التُّبُو في **تأصيله** يعود وفقًا لما مر أعلاه إلى السومرية التي لا نستطيع الجزم حتى الآن بمسارات تنقلها وهجرتها لتتوطن الصحراء، أما في **تواصله** فيعود إلى التقارض والتآثر عبر أزمنة مختلفة احتك فيها بألسنة الأقوام الأفريقية والعربية، ذلك يعني من ناحية أخرى أن هذا اللسان المصنف ضمن الفرع الصحراوي من العائلة النيلية الصحراوية يكنز في معجمه ضميمةً من اللغات الأفروآسيوية، بينما استقل من الناحية الصورفية (الصوتية الصرفية) بتأثير عزلته وانطوائه ليصطنع نسقه الصرفي ومن ثَم البلاغي.

(٥) مَسرد مقارَن (تدگا – عربي)

- (ت) أَبَّا: (ع)أب.
- (ت) أُبُنْ: (ع) ريح.
- (ت) أُبُهْ (ج. أَبَا): (ع) أصبع.
- (ت) أَبَوْ: (ع) إبرة.
- (ت) إجِّهْ: ماء. (ع) أجاج: ماء مر. أجيج الماء: صوت انصبابه. أَجَّ الماء: صار مرًّا.
- (ت) أَدِبِي: إمراة. (ع) امرأة دبَّاء: كثيرة الشعر.
- (ت) أَدَگا: (ع)أمثال، عادات.
- (ت) إدِي: (ع) أنثى (للإنسان والحيوان).
- (ت) إدِي: (ع) رمح.
- (ت) أَرْبُو: أعمى. (ع) الإربُ والأربُ: البصر بالأمور. أرِبَ بالشيء صار فيه ماهرًا بصيرًا. حُملت هذه الكلمة على الضد.
- (ت) أَرْبِي: قبيلة (ع) عَرْبِي (عَرَبِي)، أرم: شخص. أرمة: قبيلة (م←ب).
- (ت) أُرْمُو: حمار. الأَرَمُ: الأكل، العض، الضِّرس، الناب. أرَمَ: أكلَ.
- (ت) أَرَنْ: عرب.
- (ت) أَرْنَا: من قبائل التُّبُو.
- (ت) أَرَنْ گا: اللغة العربية.
- (ت) أَرَنْ گا ضُو: عربي، متحدث اللغة العربية.
- (ت) أَرُّهْ: تيْسٌ، ذكر الماعز. (ع) الأُرِوِيَّة، الأَرِوِيَّة: أنثى التيس.

- (ت) أُرُّهْ: روح لفظ محلي لكلمة (ع) الروح، لخلو لسان التُّبُو من حرف الحاء.
- (ت) آزُنُو: مرتفع، كثيب.
- (ت) أَسْكِنْوَا: سماء.
- (ت) أَشِهْ: زادٌ، مئونة. متحوِّلة عن (ع) «عيش».
- (ت) أَصُبُو: معدِن، حديد.
- (ت) أَصْكِي: حصان.
- (ت) أَضُهْ: ولد، فتى.
- (ت) أَغَصُّو: سيف.
- (ت) اكِشِي: دَيْن.
- (ت) أَلَّهْ: دماغ، مخ.
- (ت) أَلَّهَرْ: وقت العصر. متحولة من كلمة العصر.
- (ت) امْبِهْ: زيت.
- (ت) أُمْرِي: رجل، (ع) امرؤ.
- (ت) امْصُنُو: فتى، شاب. ام التعريف الحِمْيَرية، وهي جِدُّ شائعة الآن في لهجة فَيفا جنوب الجزيرة. (ع) الصِّنْو: الأخ الشقيق.
- (ت) أَمَّهْ: شخص.
- (ت) إِمِّي: جبل، حجر، صخرة. (ع) الأَميم، الأميمة: الحجارة.
- (ت) أَنْبَا: جدوى، نفْع. متحولة عن (ع) «نفع» لعدم وجود حرفي الفاء والعين في لسان التُّبُو.
- (ت) أُنْدُكُو: كيف.
- (ت) أُنْرِي: وادٍ.
- (ت) أنُو: جنوب.
- (ت) أُهْرِي: جناح، كتف.
- (ت) أُوَّرْ: قلب.
- (ت) أُوْرِي: قمر، هلال.
- (ت) أَوِنُّهْ: متسخ.
- (ت) آيْ: هذا، هذه.
- (ت) إيَّا: أُم.

- (ت) بُتَهْ: ذلك، تلك.
- (ت) بُرْوَا: غني. (ع) البَرَهُ: سِمَنُ المرأة وبضاضتها. أبرَهَ الرجل: غلب الناس. البُراية: القوة. البُراية: الشحم واللحم (في صفة البعير).
- (ت) بُرِي: وجه.
- (ت) بِزِّهْ: فقر. بِزِضُهْ: فقير. (ع) البَزُّ: السلْب. أُخِذَ بَزَّةً: قسرًا. بَزَّ الشيء: انتزعه، غصبه.
- (ت) بِزِّي: قبَّة، تلَّة. (ع) بسَق: علا وتم طوله. الباسق المرتفع في علوه، ويخلو لسان التُّبُو من حرف القاف الذي يعود همزةً أكثر الأحيان.
- (ت) بُسَاهُو: تراب. (ع) بسَّ الشيء: فتَّته، وفي التنزيل: «وبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا» أي فُتَّتْ فصارت أرضًا. وقيل نُسفَت وصارت كالدقيق. البَسْبَس: البرُّ المُقْفر الواسع.
- (ت) بُلِي: نظيف. محذوف بَلِيج: مشرق، وضيء.
- (ت) بُهْ: كبير، واسع. (ع) البهو: الواسع من الأرض، وكل فجوة عند العرب بهوٌ.
- (ت) بي: جو، مناخ.
- (ت) تَانِهْ: أنا.
- (ت) تَبَهْ: تبغ. متحولة من «تبغ».
- (ت) تِبِي: طعام، أكْل. (ع) التَّبِيُّ، التِّبِيُّ: ضرب من التمر. وقريب منها تبا: إذا غزَا فغنِم.
- (ت) تَتْ: مشى، ذهب. (ع) تَأَى: سَبَقَ.
- (ت) تِدَا: عشيرة تُباوية.
- (ت) تِدَگا: لهجة تِدَا.
- (ت) تُرِي: دلو. (ع) التُّرْفَة: مِسْقاةٌ يُشرب بها. ويخلو لسان التُّبُو من حرف الفاء الذي يُبدل هاءً أو يغيب في أكثر الأحيان.
- (ت) تِرِي: جميل. (ع) التَّارُّ: الغلام الشاب الممتلئ البدن. التَّرَّة: المرأة الحسناء. تَرَّ الرجلُ: امتلأ جسمه وتروَّى عظمه.
- (ت) تْرِي: محذوف (ع) طريق.
- (ت) تَزَرْ: بلدة، بلد وبها تُسمَّى مدينة الكُفرة. قا. توزر (تونس)، وتازربو (ليبيا).
- (ت) تِسْكِي: نجم.
- (ت) تْشَا (چَا): شربَ. شأْ، (ع) جأْ: أمر للإبل بورود الماء.

- (ت) تْشَاكْ: جَرَى. (ع) شآهُ: سبقه. الشأو: السبْق.
- (ت) تْشُبْ (چُبْ): طعنَ. (ع) جَبَّ: قطعَ. الجُبَّأُ: طرَف قرن الثور. بجَّ: طعن وشق.
- (ت) تْشُبُو (چبُو): أكلَ. (ع) جَأَبَ: كَسَبَ.
- (ت) تْشُرُكْ: خرجَ، ذهب.(ع) شَرَكُ الطريق: وضوحها واتساعها. الشُّرَكيُّ: السير السريع.
- (ت) تْشِرِّي: بجانب. (ع) الشَّرِير: الجانب والناحية.
- (ت) تْشُنَكْ: وضعَ، حطَّ.
- (ت) تْشُهُرَهْ: طيور. (ع) الصافر: كل ما لا يصيد من الطير. (الفاء العربية هاءٌ في لسان التُّبُو).
- (ت) تْشُهُرِي: طائر.
- (ت) تْشِهْ: أنف.
- (ت) تْشِي: موجود.
- (ت) تُصْ (صُصْ): وقف (قف).
- (ت) تُصُّهْ: ألم، صعبٌ.
- (ت) تُغُهْ: الغد.
- (ت) تُغُوْ (ج. تُغُمَا): ثدي.
- (ت) تُگُهُو: صباح.
- (ت) تُگُهُو بُولِگِي: بزوغ الشمس.
- (ت) تُلِي: بلحة. (ع) التَّالُّ: صغار النخل وفسيله. الواحدة: تالة.
- (ت) تُمَهْ: سِن.
- (ت) تَمَنُّهْ: غالٍ. متحولة عن «ثمين».
- (ت) تِنْدَهْ: نحن.
- (ت) تِنِّمِي: رفيع، رقيق.
- (ت) تِنِّي: نخلة، تمر.
- (ت) تُو: صخر، جبل، منطقة تبستي.
- (ت) دُأَيِّهْ: دعاء.
- (ت) دُرُسُّو: طويل ضخم. (ع) الدِّرواس: العظيم من الإبل، الغليظ العنق.
- (ت) دِرِهْ: سعف النخيل.

- (ت) دَزَگا: لهجة قبيلة الدَّزَا.
- (ت) دِسْكِي: نهار.
- (ت) دُگُهُو: ليل.
- (ت) دگُو: مرجعية، حجة.
- (ت) دُگُو: حفيد.
- (ت) دُوْگُو: بعيد.
- (ت) دُگُصُّوه: ليْل.
- (ت) دُگُصُّو كْوِيْي: منتصف الليل.
- (ت) دُگُدِي: قيلولة.
- (ت) دِهِنِي: شَعر.
- (ت) دَهُو: رأس. الدَّهْوُ: العَقْلُ.
- (ت) دِي: غرْب.
- (ت) زُگُهْ: فيما بعد.
- (ت) زُنْدُهْ: سيئ، لئيم. (ع) رجلٌ مزنَّدٌ: لئيم، بخيل، سريع الغضب. زَنَدَ الرجل: كذب. أو هي متحولة من «زنديق».
- (ت) سبر: (ع) صبر.
- (ت) سُهْ: رِجْل، (ع) ساق.
- (ت) شِدَنُو: ذبابة. (ع) صَيْدَنٌ: ذباب.
- (ت) شِنِي: قِربة. (ع) الشَّنُّ: القِربةُ، الشَّنُّ والشَّنَّةُ: القربة الخَلَق، وكل خَلَق من كل آنية صُنعت من جلد. ج. شِنان. تشنَّنَت القِربة: أخلَقَتْ.
- (ت) صُلِي: بيضة. (ع) صُلصُل: طير. (ع) سُلاء: من الطيور.
- (ت) شِهْ: أُذن. (ع) صَهْ: كلمة زجر للسكوت والإنصات. شَهْ: كلمة تفيد الانتهار.
- (ت) صَلِّيٌّ: صلاة. متحولة عن «صلاة».
- (ت) صُوْ (ج. صَمَا): عين. (ع) الصَّبيُّ: ناظرُ العين.
- (ت) طاصُهْ: صحن. (ع) الطاس: الذي يُشرب فيه.
- (ت) طُهْ: عنق. متحولة عن طوق. (ع) الطوق: حَلْيٌ يُجعل في العنق.
- (ت) كَانْجِهْ: مرَّ.
- (ت) كُبَهْ: يد. متحولة من كف.

- (ت) كِدِهْ: طبل. (ع) الكدكدة: حكاية صوت شيء يُضرب على شيء صُلب.
- (ت) كِدِي: كلب. (ع) كَدِيَ الكلبُ: إذا نَشِبَ العظم في حلقه. الكَدُ: داء يصيب الجراء خاصةً.
- (ت) كُدِي: سحاب. (ع) أَكْدَى المطرُ: قلَّ.
- (ت) كَرَّا: قبيلة كْريدة، كانت تتوطن أوزو ثم انتقلت لتجاور الدَّزا في بحر الغزال.
- (ت) كُرَنُّهْ: سمين.
- (ت) كُرُهْ: قصير. (ع) أَكْرَى: قصُرَ، نقَصَ.
- (ت) كُتُبا، كُتُما: الدستور العرفي لقبائل التُّبُو؛ (ع) كتاب، (ج) كُتُب. (ب ← م).
- (ت) كِدْرِي: شفة.
- (ت)كُدْرُهْ: ثمن، (ع) قدْر الشيء وتقديره والقدرة على شرائه.
- (ت) كِزَنْ: مرض، عاهة. (ع) الكُزَازُ: داء يتولد من شدة البرْد. القَزَلُ: أسوأ العرَج.
- (ت) كِتِي بطن. كِتِي گا: أمعاء. (ع) الكُشَّة، الكُشْيَةُ: شحم يكون في بطن الضَّبِّ.
- (ت) كُگَيَهْ: دجاجة. (ع) القُوَيْقَة: كناية عن البيضة. القاق، القوق: من طيور الماء. القَيْقُ، القَوْقُ: صوت الدجاجة.
- (ت) كُلا: فرْج.
- (ت) كِنَادُو: صبْر. كِنَادُّهْ: صبور.
- (ت) كُنْجِي، كُنْگي: صدر.
- (ت) كِنْدِگِي: سهم.
- (ت) كَنْدَمَا: طُمُوح. كَنْدَمَاي: طَمُوح.
- (ت) كِنِّي: صغير.
- (ت) كِنِي: أعرج.
- (ت) كُهْ: فم. (ع) كُهْ في وجهي: أشممني نَكْهَةَ فمك.
- (ت) كِيا: سهل. (ع) الكَيْءُ، الكِيءُ، الكاءُ: الضعيف الفؤاد الجبان.
- (ت) گالِي: جيد، حسن، ثمين. (ع) غالٍ، والغالي الجيد الثمين.
- (ت) گُبُدِهْ: أمام.
- (ت) گُبْرْ: كهف. (ع) قبر، وبعض كهوفهم كانت تُتخذ قبورًا.
- (ت) گُبِهْنَا: صَدْر. صدر الأضحية مخصص في أعراف التُّبُو لابن الأخت.
- (ت) گُرَگا: فِدية القتيل.

- (ت) گُلْگُلِهْ: رعد. (ع) قلقل: صوَّت. القلقلة: شدة الصوت، وشدة اضطراب الشيء. منه: قلقلة الرعد.
- (ت) گُنِي: مدينة، حضر. (ع) الكِنُّ: البيت. ج. أكنان وأكنَّة.
- (ت) گْوَنِي: جمل.
- (ت) گُيِ: رفعَ.
- (ت) لاشَا: وقت العشاء. متحولة عن (ع) العشاء.
- (ت) لاوُ: جنب. (ع) ألوى الرجل برأسه ولوى رأسه: أماله من جانب إلى جانب.
- (ت) لَرضُو (ج. لَرْضَا) بلد. (ع) الأرض. ويُذهب بالأرض إلى الموضع والمكان.
- (ت) لَگالَّگا: ورقة.
- (ت) لَمْ: لوْم. متحولة عن (ع) «لوْم».
- (ت) لَمَرْ: مناسبة، حدث. (ع) الأمر: الحادثة.
- (ت) لِهْ: أتى، قدم.
- (ت) لِيتْشِي: آتٍ، قادم.
- (ت) لَوُدِهْ: جنب، بجانب.
- (ت) لُوبِي: خنجر، مُدية.
- (ت) مَاهَرْ: وقت المغرب.
- (ت) مِدَهْ: كلام. مِدِي: كلمة. (ع) المَذْع: الإخبار ببعض الأمر، أو قطعه والأخذ في غيره. المذَّاع: الذي لا يكتم سرًّا.
- (ت) مُرُهْ: هو، هي.
- (ت) مُرَا: هم، هن.
- (ت) مَشَهْ: طعام، أكْل. متحولة من (ع) «مشع»، أو «مشق». المشْع: ضرب من الأكل كأكلك القِثَّاء وغيره مما له جَرْس. المشْق: شدة الأكل، والمشق: تناول القليل منه. مَشَقَت الإبل في الكلأ: أكلت أطايبه.
- (ت) ملاو: حشد من الناس، (ع) ملأ.
- (ت) مَهْ: شرق.
- (ت) نْدُبِهْ: مأدبة، طعام، (ع) مأدبة.
- (ت) نْدِگِي: ناموسة.
- (ت) نِرِهْ: مجيء، قدوم.

- (ت) نْضُو: أين.
- (ت) نِگِهْ: لماذا.
- (ت) نْگِلِهْ: مطر.
- (ت) نِلَهْ: عمْر.
- (ت) نُمَهْ: مدينة.
- (ت) نُمَهْ: متى.
- (ت) نُمَيْ: بُلَيْدة، حي.
- (ت) نَنْغَزَهْ: طبل.
- (ت) نْيَاكي: نامَ.
- (ت) نْيِيْهْ: نعجة.
- (ت) هُدُو: شروق.
- (ت) هِدِي: قضيب.
- (ت) هُرْ: بقرة.
- (ت) هُرْتْشِدِي: كيٌّ، حجامة.
- (ت) هُرُمَّا: صحراء.
- (ت) هُصَرْ: ظَهْر.
- (ت) هَصُو: واضح.
- (ت) هُضُو: قِبلة، شروق.
- (ت) هُكْتِيَا: من قبائل التُّبُو.
- (ت)هُكُرْ: (ع) فِكْر.
- (ت) هُمْبُني: جبين.
- (ت)هِنْجَلَهْ: (ع) فنجان.
- (ت) هْوِهْ: قعر، قاع. صيغة (ع) هوَّةٌ.
- (ت) وَرَّدَهْ: إبل واردة. (ع) ورد، وارد، واردة.
- (ت) وُرِهْ: عطش.
- (ت) وِنِگا: هل، أترى؛ ظن، شك.
- (ت) وِنِگِي: ساخن.
- (ت) وُورْتْشِي: زغردَ(ت).

- (ت) وَيْ: غراب.
- (ت) يَابِهْ: بيت.
- (ت) يُبُرْ: غزو.
- (ت) يِرْتْشِهْ: قامَ، نهض.
- (ت) يَرْكَهْ: شِعب، شِق. (ع) الرقِي: الصعود. جبل لا مَرْقَى له: لا مصعد إليه. الرَّقوة: ما اجتمع من الرمل على شفير الوادي. الرَّقْوُ، الرَّقْوَة: الدِّعْصُ من الرمل، ويكون إلى جانب الأودية. المرقاة: الدرج.
- (ت) يُرُمْ: خروف. (ع) أرِمَت السائمة المرعى: أتت عليه حتى لم تدع منه شيئًا.
- (ت) يِرِي: تعال.
- (ت) يُزُگُّهْ: ضحى.
- (ت) يُزُهْ: شمس. متحولة من «ضوء»، «يضيء». وتنطق «يُزُ» بدون الوقف على الهاء كما في قولنا «يُزُ تْشُلُكُهْ»: غروب الشمس.
- (ت) يِشِّهْ: استلقى.
- (ت) يُگُهْ: غير موجود
- (ت) يَلا: أسرة، عائلة. (ع) آلُ الرجل: ذووه.
- (ت) يَلَهْ: شمال.
- (ت) يَهَا: قالَ.
- (ت) يُهُدِ: خلف.
- (ت) يُهُضُو: شبعان.

(٦) خلاصات واستشراف

(أ) لسان قبائل التُّبُو غير مدوَّن بعدُ. وهو لسان بُدائي قديم يمتح معجمه من مصدرٍ رئيس هو المقاطع السومرية المفردة والمثنَّاة، ومصدر ثانٍ هو الجذور العربية، مع تحوُّر الكِلِم في صيغ تلفُّظ محلية.

(ب) يتكون لسان التُّبُو من ثلاث مراحل أساسية؛ الأولى: منذ النشأة حتى القرن السابع (الفتح الإسلامي)، الثانية: منذ القرن السابع حتى القرن الثامن عشر (الاجتياح الأوروبي)، الثالثة: منذ القرن الثامن عشر حتى الوقت الحاضر. كما يمكننا توقع مرحلة

رابعة في المستقبل تمثل اندماج لسان التُّبُو في اللغة العربية صرفيًّا، أي دون إلغاء المعجم التُّباوي، ولكن بإحلالٍ تدريجي للتركيب الصرفي العربي.

(جـ) كتابة تدگا (وكذلك دزگا) بالرسم القرآني (الحرف العربي النمطي) تعيد توطين لسان قبائل التُّبُو في بيئته اللُّغوية (المنظومة الأفروآسيوية)، والاجتماعية (وحدة أصول سكان شمال أفريقيا والصحراء)، والتاريخية (مسارات الحراك الكبرى)، والمعتقدية (الإسلام)، ويناى به عن محاولات التغريب والتنصير المتمثلة في محاولات نقحرة هذا اللسان بحروف لاتينية.

(د) لا يمكن كتابة لسان التُّبُو إلا بإثبات الحركات الأربع الرئيسة (الفتحة، الضمة، الكسرة، الإمالة)، كما أن الإمالة تحقق أربع صيغ لا غنى عنها في التصويت وهي تقع بين إمالة الحركة وإمالة المد: (إمالة الكسر القصيرة، إمالة الكسر الطويلة، إمالة الضم القصيرة، إمالة الضم الطويلة)، وفي مجموع هذه التصويتات السبعة ما يغني تمامًا عن استخدام الصوائت Vowels المعتمدة في النقحرة اللاتينية.

(هـ) لكي ندقق تلفظ بعض الفونيمات المركبة في لسان التُّبُو علينا العودة بها إلى عناصرها. ĝ مثلًا يجب أن تُقرأ نونًا مسكنة يليها قاف يمانية محركة بحسب ورودها في الكلمة (نْگَ، نْگِ، نْگُ، نْگ˜)، دون اعتبارها حرفًا واحدًا، ودون الحاجة إلى ابتداع رموز كتابية غريبة عن الرسم النمطي المعروف، كذلك الأمر بالنسبة للفونيم المركب ñ الذي نعود به إلى نون مسكنة يليها ياء محركة بحسب ورودها في الكلمة (نْيَ، نْيِ، نْيُ، نْي˜).

ملاحق

(١) التُّبُو في مشاهدات الرحَّالة والجغرافيين

لم يأخذ الحديث عن التُّبُو شكلًا مباشرًا إلا بعد أن وصلتهم أولى رحلات المستكشفين والجغرافيين الذين عبروا الصحراء الليبية نحو مجاهل أفريقيا في القرن الثامن عشر، ولا نعثر قبل ذلك سوى على بعض الإشارات التي ربما دلت على عزلة التُّبُو أو تفضيلهم تجنب الأغراب، وبالرغم من أن العديد من الرحَّالة تحدثوا عن استضافتهم من قِبل قبائل الصحراء، إلا أننا لم نر رحَّالة واحدًا يتحدث عن استضافته من قِبل التُّبُو، وإن تحدث بعضهم عن مرافقتهم واللقاء بهم أدلَّاء أو زوَّارًا، ولهذا السبب فإن مثل هذه الكتابات تكتفي عادةً بوصفهم ظاهريًّا أو من خلال مصادر ثانوية، فقد كان الرحَّالة يمرون بقبائل التُّبُو لمامًا ليصفوا بلداتهم ولغتهم وأنماط إنتاجهم في بيئة صحراوية بالغة القسوة والجفاف، وعَلاقاتهم بالأقوام المجاورة، وغير ذلك مما يرونه من مظاهر حياتهم الاجتماعية والاقتصادية. ونقتصر في هذا الملحق على ثلاثة نماذج من:

- مذكِّرات الرحَّالة فريدرك هورنمان (١٧٩٧م).
- ملاحظات الجغرافي إيلزي ريكلوس (١٨٩٢م).
- مذكِّرات الرحَّالة أحمد محمد حسنين (١٩٢٣م).

مع تصحيح بعض الأخطاء الواردة في النصوص الأصلية، والتعليق عليها، وتصويب أسماء بعض البلدان والأقوام، والتعريف بها.

(١-١) التُّبُو في مشاهدات هورنمان[١] (١٧٩٧م)

يسكن التُّبُو شرق وجنوب وجنوب شرق فزان، ويحكمون أيضًا الإقليم الذي يقع في المنطقة الصحراوية ما بين فزان ومصر. إن أقرب بقعة مسكونة شمال التُّبُو هي أوجلة وسيوة، ويجاورهم من ناحية الجنوب العرب الرحل، ومن ناحية الغرب — فيما بعد فزان — أراضي الطوارق.

بشرة التُّبُو ليست سوداء تمامًا، قَوامهم نحيل، سواعدهم مفتولة، مشيتهم رشيقة، وعيونهم ذكية، وشفاههم غليظة، وأنوفهم فطساء وليست كبيرة، وشعرهم طويل جدًّا ولكنه أقل تجعدًا من شعر الزنوج. يبدو كما لو كانت لديهم طاقات طبيعية هائلة ولا يملكون الفرصة لاستخدامها، فهم محاطون بالشعوب البربرية والمسلمين، ويتهمهم العرب بأنهم سيئو الظن غادرون مخادعون، ولهذا فإن أهل فزان لا يسافرون فرادى خوفًا من بطشهم.

يتكون لباس أهل التُّبُو من جلد الخراف شتاءً ويلبسونه دون صوفه صيفًا، وهم حينما يذهبون إلى فزان يلبسون قميصًا كبيرًا أزرق ويلفون رءوسهم حتى لا يبدو منها سوى العينين، وسلاحهم رمح طوله ستة أقدام وسكين طولها ما بين عشرة وعشرين بوصة يعلقونها على الكتف الأيسر ويلبسون حول وسطهم حزامًا من الجلد يتدلى منه جراب عرضه ثلاث بوصات.

---

[١] فريدريك هورنمان F. Hornemann (١٧٧٢–١٨٠١م) رحَّالة ألماني انضم في ١٧٩٦م إلى الجمعية الأفريقية في لندن، وتعلم اللغة العربية استعدادًا لرحلته إلى أفريقيا، وصل إلى مصر سنة ١٧٩٧م، وفي ١٧٩٨م التحق بقافلة متجهة إلى المغرب مدعيًا أنه مملوك مصري اسمه يوسف وأنه جاء للتجارة، ثم إلى فزَّان، فكان أول أوروبي يصل إلى الهَروج الأسود قادمًا من أوجلة إلى تمَسَّة، ووصل إلى مرزق سنة ١٧٩٨م، ومنها بعد عدة أشهر إلى طرابلس، ثم عاد ثانيةً إلى مرزق. ثم زار بلاد الهَوسا، فكان بذلك الأوروبي الأول الذي يصل إليها. وقد استطاع هورنمان أن يجمع معلومات قيمة عن أقوام الصحراء الكبرى والسودان الأوسط، ثم انقطعت رسائله وأخباره سنة ١٨٠١م، وهي السنة التي يرجَّح أنه مات فيها، إلا أن شهودًا بعد ذلك رأوه سنة ١٨١٩م في شمال نيجيريا، وقالوا إن الأهالي يعتبرونه شخصًا مباركًا، أي «مرابطًا»، وقيل إنه ظل هناك إلى أن مات سنة ١٨١٩م. كتب هورنمان مذكِّراته باللغة الألمانية، ونُشرت سنة ١٨٠١م، وظهرت ترجمتها الإنجليزية في لندن سنة ١٨٠٢م. ونقتطف هذه المختارات عن ترجمتها العربية: يوميات الرحَّالة فريدريك هورنمان، الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزان عام ١٧٩٧م، تعريب مصطفى محمد جودة، مكتبة الفرجاني، طرابلس – ليبيا، ١٩٦٨م.

ويتكون التُّبُو من قبائل عديدة يأتي على رأسها قبيلة بِلما Bilma[٢] ويسكن زعيمهم «دِرِك»[٣] على مسافة رحلة يوم واحد من بِلما. وقبيلة بِلما خليط من أجناس عديدة، وقد استطاعت أن توطد نفسها بالقوة بين قبائل الزنوج الذين ما زالوا يعيشون في هذه المنطقة، ومعظم سكان بلما من الزنوج بينما نجد أن سكان دِرِك جميعهم من التُّبُو.

تعمل قبيلة بلما بالتجارة ما بين فزان وبُرنو، ويسافرون في جماعات صغيرة العدد ما بين ستة وثمانية رجال، وهم مشهورون بسوء طباعهم، لدرجة أن عبيد بُرنو الذين أُعتِقوا يرفضون السفر معهم خوفًا من القتل أو السرقة.

ويدين التُّبُو بالإسلام، ويقال أنهم غير متدينين. أما قبيلة تبو رشاد Tubu Reshadeh — وهي تعني صخور التُّبُو[٤] — وهم يحملون هذا الاسم نظرًا لطبيعة منازلهم التي تبنى من الصخور أو يسكنون في الغالب الكهوف أو الأكواخ في الصيف.

ويسكن زعيم «تبو رشاد»[٥] مدينة آبو Abo وهي تقع بالقرب من تبستي أكبر مدن هذه المنطقة. ويذهب رجال هذه القبيلة إلى فزان في جماعات كبيرة ويرتدون زي الطوارق، ولقد رأيت عددًا منهم يرتدون جلد الخراف، وقيل هم مسلمون متدينون.

أما قبيلة بُرگو Burgu[٦] فهم لا يزالون وثنيين، وهم يسكنون منطقة خِصبة تزخر بالنخيل والبلح والكلأ.

وحدث أن قام بعض أهل بُرگو بالسطو على جماعة من فزان بينما كانوا يسافرون في ما بين برگامي[٧] ومرزق، وأرسل إليهم سلطان فزان جيشًا صغيرًا قِوامه اثنان وثلاثون

---

[٢] بِلما واحة توطنتها قبائل الدزا من التُّبُو، وتقع في منطقة أغادس شمال النيجر.

[٣] من واحات إقليم أغادس بالنيجر، وتبعد عن بِلما رحلة يوم واحد.

[٤] «تبو رشاد» ليس اسم قبيلة بل هي عبارة باللهجة الليبية تعني تبو الصخور، أي الذين يعيشون بين الصخور، ويُستدل بهذه الكلمة على جميع قبائل التُّبُو.

[٥] يتحدث هورنمان هنا عن «زِطِّيمي» أو «زِطيني» أو «زِيتوني» كما يفضل بعض الأهالي تسميته، وهو زعيم المنطقة الغربية من جبال تبستي، وقد كان حليفًا للسلطان شهاي، ثم التحق به في مقاومة الفرنسيين إلى أن تم أسره، وكان مسنًّا، وأُجبر على إعلان رضوخه لفرنسا.

[٦] بُركو Borkou أو بُرگو Borgou ليست قبيلة ولكنها سهوب تقع جنوب تبستي يرتادها رعاة التُّبُو.

[٧] هي باقرمي أو باگرمي Baguirmi جنوب شرق بحيرة تشاد. أسس السلطان برني بيسي مملكة باگرمي حوالي سنة ١٥١٣م، وكان وثنيًّا، ثم اعتنق السلطان عبدالله بن مالو (١٥٦١–١٦٠٢م) الإسلام، وتوطن العرب مملكة باگرمي بالإضافة إلى قبائل كانوري وفَلاتة وكُتُكو.

فارسًا وسبعون من المشاة ومئتان آخرون من قبيلة رشاد. وسافر الجيش إلى القَطْرون، وهي تقع جنوب مرزق على بعد أربعة وخمسين ميلًا، ثم إلى فقيري Feqherie،[٨] وتقع جنوب غرب القطرون على بعد ثلاثة وثلاثين ميلًا، ثم إلى آبو Abo بعد سفر سبعة أيام، وسرقوا مئتين من أهلها وبِيع الجزء الأكبر منهم عبيدًا.

وتُمشِّط نساء قبيلة بُرگو شعورهن على هيئة جدائل طويلة تتدلى خلف رءوسهن ويقصصن شعرهن عند مقدمة الرأس.

وتقع بعيدًا ناحية الشرق على مسافة خمسة أو ستة أيام بلدة تدعى أرنا Arna[٩] ويسكنها قبائل التُّبُو، ويسكن الفيبابو Febabo[١٠] جنوب غرب أوجلة وهم معرضون لهجمات سكان بِنغازي وأوجلة إذ يسطون عليهم ويسرقون البلح والرجال. ولقد أوضح لي أهالي أوجلة أن فيبابو تبعد حوالَي عشَرة أيام باعتبار أن رحلة اليوم الواحد واحدٌ وعشرون ميلًا، وخلال الستة أيام الأولى لا يوجد ماء على الإطلاق.

ويسكن التُّبُو الرحَّل Nomadic Tubu أقصى الجنوب، وهم يقطنون واديًا خِصبًا يسمى بحر الغزال Bahr el-Ghazal[١١] وهو يبعد سبعة أيام شمال باگرمي.

وفي «ملاحظات جغرافية عن مسار هورنمان» كتبها الميجور رينيل (ص١٧٤–١٧٩): «تتكون إمبراطوريات بُرنو وهاوسا من ولايات عديدة، تتقاسم المسافة على طول نهر النيجر من تِمبُكتو[١٢] حتى دارفور شرقًا وتمتد لمسافة معقولة إلى الشمال خلف مجرى

---

[٨] هي الفقارة أو الفجارة في تَراغِن بجنوب ليبيا، ومنها كانت تمتد شبكة مائية تقليدية تحت الأرض لمسافة ٥٠ كم على شكل آبار عمودية متصلة أفقيًّا لتزويد المناطق المجاورة.

[٩] أرنا هي إحدى قبائل التدا من التُّبُو، وتعيش الآن في الكُفرة.

[١٠] وتُسمَّى في كتابات أخرى: كيبابو، لم يتم تحديد موقعها، ويرجَّح أنها من واحات الكُفرة القديمة.

[١١] بحر الغزال: هي الآن مقاطعة تشادية شرق مقاطعة كانِم، وليس المقصود إقليم بحر الغزال في جنوب السودان أو رافد النيل المعروف بهذا الاسم. ويقول هورنمان في خطاب له كتبه في ١٩ أغسطس ١٧٩٩م بطرابلس (ص١٣٤): «أما بحر الغزال فهو ليس بحرًا وإنما وادٍ خصيب يسكنه التُّبُو ويبنون منازلهم من الجلد.»

[١٢] تِمبُكتو أو تِنبكت: أشهر مدن غرب أفريقيا من الناحية التاريخية، وهي حاليًّا مدينة جرداء متصحرة من مدن مالي. لعبت هذه المدينة دورًا كبيرًا في نشر الإسلام. احتلها الفرنسيون في أوائل القرن التاسع عشر. سكانها من الطوارق وغيرهم من القبائل العربية كالأدارسة والأفريقية كالصنگي.

النهر، ويتقاسم بقية المنطقة من الشمال التُّبُو والطوارق، وتحيط فزان من كل ناحية ما عدا الشمال وتقترب من المناطق الملاحية على طول البحر المتوسط من الصحراء القريبة لمصر حتى المحيط الأطلسي.»

ويبدو أن هورنمان هو أول رحَّالة يحصل على معلومات هامة عن التُّبُو والطوارق، ويمتلك التُّبُو المنطقة الشمالية لهذه البقعة الشاسعة ويمتلك الطوارق الجزء الغربي منها، ويفصل ما بينهما من الشمال فزان. وكما أوضح هورنمان فإن توطن التُّبُو بدأ في الجنوب والجنوب الشرقي من فزان وامتد شرقًا إلى جنوب الهَروج[١٣] وصحراء أوجلة حتى صحراء ليبيا الواسعة التي تحدُّ مصر غربًا، وتشكل هذه الصحراء الحدود الشرقية للتُّبُو. وإلى الجنوب يعيش بدوٌ رحَّل في المنطقة ما بين التُّبُو وإمبراطورية بُرنو، ويعيش في الغرب طوارق آسبن.

وينقسم التُّبُو إلى القبائل الآتية: ١. رشاد (الصخر)، ٢. فيبابو، ٣. بوگو، ٤. آرنا، ٥. بِلما، ٦. التُّبُو الرحَّل.

أولًا: قبائل تبو رشاد[١٤]

وتمتلك هذه القبيلة الإقليم الذي يقع إلى جنوب وجنوب شرق فزان ومدنهم هي: آبو، وتبستي. ويمكن ملاحظة البلدان السابقة على الطريق الذي اتخذه هورنمان.

واسم قبيلة رشاد (أو الصخر) مشتقة من منازلهم الصخرية والكهوف التي يعيشون فيها قبل أن يبنوا أكواخًا من أوراق الشجر يقضون فيها شهور الصيف. ويمكن استخلاص بعض الحقائق عن هذه القبيلة من خلال ملاحظات بيوفوي عن الإقليم الذي يقع بين فزان وبُرنو، وكذا من وصف هورنمان للهَروج الأبيض.

[١٣] تجمُّع من حوالي ١٥٠ جبلًا بركانيًّا خامدًا تمتد من جنوب منخفض القطَّارة إلى شمال وادي الحياة، وهو الأكبر من نوعه في شمال أفريقيا، وينقسم إلى الهَروج السُّود نسبة إلى لون الصخور البازَلتية، ولا تخلو قممها من البحيرات والنباتات والحيوانات، والهَروج البِيض نسبة إلى لون الصخور الكِلْسية.

[١٤] «تبو رشاد» عبارة باللهجة الليبية تعني تبو الصخور أي الذين يعيشون بين الصخور، وهو ليس اسم قبيلة محددة.

ويؤدي الطريق الذي يبدأ بتمَسَّة[١٥] بعد مسيرة سبع رحلات إلى وادي تبستي، ويسكن هذا الوادي قوم مسلمون (قبيلة رشاد تدين بالإسلام أيضًا) وتؤدي الأربعة أيام الأخيرة من الرحلة إلى ما يسمى تلالًا صحراوية رملية كما قال السيد بيوفوي.

وجبال الهَروج الأبيض التي عبرها هورنمان والتي تقع بالقرب من هذه المنطقة تمتد جنوبي أوجلة حتى مرزق، فإنه من المحتمل أن تكون التلال الصحراوية التي ذكرناها من قبل هي امتداد للهَروج الأبيض.

ومما يدعم هذا الافتراض أن هورنمان عِلم أن صحراء سوداء تمتد على طول الطريق ما بين فزان وبُرنو، وكما أوضحنا من قبل فإن الهَروج الأسود تلتقي بالأبيض ناحية الشَّمال، وربما كانت هذه السلسلة تمتد جنوبًا في الاتجاه الذي أخبر هورنمان أن الهَروج الأسود تمتد على طوله خلف المسار الذي سار به.

ولقد وصف هورنمان الجزء التِّلي من الهَروج الأبيض بأنه يتكون من أحجار كِلسية هشة يوجد بها بعض الكائنات المتحجرة ويمكن فصلها بسهولة، إذا ليس هناك صخور يمكن أن تحتوي على كهوف طبيعية أو يمكن أن تُنحت. وعليه فإن هذه المنطقة كما اتضح من الحديث عنها ومن خلال موقعها يبدو أنها هي تبو رشاد.

ويمكن أن نستنتج من وصف هيرودوت أن تبو رشاد هم ساكنو الكهوف الإثيوبيين[١٦] Ethiopian Troglodyte حيث كان يصطادهم الغَرَمنت، وفي رأيي أن الغَرَمنت هم أهل فزان، وها هم التروغلوديت (ساكنو الكهوف) يسكنون بالقرب منهم، وهم يتميزون بالرشاقة.

وقد قال هورنمان إن التُّبُو يتميزون بالرشاقة والخفة، ولكنه كان يتحدث عن التُّبُو بصفة عامة لا قبيلة بعينها، ومن ناحية أخرى يبدو لنا أنه رأى كثيرًا من تُبُو رشاد أكثر مما رأى من غيرهم، فقد قال: «إنهم يذهبون في جماعات إلى فزان»، ويحتمل أن يكون قد عمم ملاحظاته عن تُبُو رشاد على التُّبُو جميعهم.

ونحب أن نعرض رأيًا غريبًا لهيرودوت فقد قال إن التروغلوديت يتكلمون لغةً تماثل صرخات الخفافيش.

---

[١٥] تقع تمَسَّة شرق زَويلة الأثرية بالقرب من الهَروج السوداء.

[١٦] حول ساكني الكهوف Troglodyte انظر: ١-٢-أ.

ثانيًا: فيبابو[١٧]

تقطن هذه القبيلة على بعد عشر رحلات جنوب الغرب من أوجلة، في منطقة صحراوية خالية من الماء. ونظرًا لقربهم من بِنغازي، فالمسافة لا تتعدى عشرين يومًا، كانوا معرضين لهجمات أهل بِنغازي وأوجلة لسرقة البلح والأهالي.

ثالثًا: بُرگو[١٨]

وهي خلاف «برقو» [بركو] إحدى ولايات دارفور. وقد ظهرت في كتابات دانفيل ودلسيل وليو أفريكانوس[١٩] تحت اسم Berdoa،[٢٠] وربما أخطأ هورنمان في كتابتها.

وتسكن هذه القبيلة على مسافة بضعة أيام جنوب فيبابو، وهي على مسافة ثمانية عشر يومًا من تبستي، وعليه فإنه يُحتمل أن تقع إلى الجنوب قليلًا من غرب أوجلة في موازاة جنوب فزان.

وعلى الرغم من أن هذه المنطقة خِصبة — كما يقال — إلا أن أهلها يتميزون باللصوصية، فقد تعرضت القافلة التي تسير ما بين برگامي وبُرنو — وذلك إبان زيارة هورنمان — إلى هجماتهم. وقد أرسل إليهم سلطان فزان حملة صغيرة مما يعطي انطباعًا أنهم قليلو العدد أو مشتتون.

وقد أشار السيد بيوفوي في مناسبة أخرى (الجزء الرابع سنة ١٧٩٠م) إلى أن تُبُو تبستي قد أغاروا على قافلة من فزان، وتدل الخرائط الجغرافية على أن القوافل المتجهة جنوب الشرق تتعرض لهجمات بُرگو، تبستي، في طريقها إلى فزان.

---

[١٧] فيبابو ليست قبيلة من التُّبُو، ويرجَّح أنها من واحات الكُفرة القديمة، وقد سبق القول إنها غير محددة في الوقت الحاضر.

[١٨] بُرگو Borgou أو بُركو Borkou ليست قبيلة ولكنها سهوب تقع جنوب تبستي يرتادها رعاة التُّبُو.

[١٩] هو الحسن بن محمد الوزان، مؤلف «وصف أفريقيا». ولد بمدينة غرناطة عام ٩٠١هـ (١٤٩٥م)، ويجعل بعضهم تاريخ مولده عام ٩٠٦هـ (١٥٠٠م). وقع في أسر القراصنة الأوروبيين واقتيد إلى روما فاستبقاه البابا ليون العاشر لتدريس اللغة العربية، ثم حمله على اعتناق المسيحية.

[٢٠] يعني برداوة، التي يدعوها الأهالي الآن: برداية، وقد نسب الوزان سكان برداوة إلى البربر، ووصفها قائلًا: «تمتد شرقًا إلى قفر أوجلة، وتتاخم شمالًا مفازات فزان وبرقة، ممتدة جنوبًا إلى تخوم مفازة بُرنو. الأرض شديدة الجفاف في هذه الناحية، ولا يمكن اختراق هذه البلاد بسلام، فأهل غدامس وحدهم يستطيعون ذلك لأنهم أصدقاء لبرداوة، يأخذون من فزان المؤن والثياب وغير ذلك مما هو ضروري للسفر» (وصف أفريقيا: ج٢، ١٥٤).

رابعًا: أرنا[٢١]

ويقال إن هذه القبيلة تسكن على مسافة خمس أو ست رحلات شرقي تبو Tubu وتحدها صحراء ليبيا، ويبدو أن السيد هورنمان لم يعرف عن هذه القبيلة سوى اسمها.

خامسًا: بِلما[٢٢]

وتعتبر أكبر قبائل التُّبُو، وهم يسكنون منتصف الطريق ما بين فزان وبُرنو. تتاخم صحراء بِلما، والتي يُعتقد أنها [بَلما] Balma التي ذكرها الإدريسي. وهم يعملون بالتجارة ما بين فزان وبُرنو. وربما يُقصد بها Billa التي أشار إليها بطليموس ولكنها تقع إلى الشرق.

وقد حدد بيوفوي المسافة ما بين قوافل الملح من أغادس[٢٣] حتى بحيرة دَمبو التي تقع في صحراء Bilma بخمسة وأربعين يومًا. وبمعدل ١٣ ميلًا تكون المسافة حوالي ٥٨٥ ميلًا، بينما تظهر المسافة على الخريطة أقل من ستين ميلًا، وعليه فإما أن تكون أغادس أبعد ناحية الغرب، أو تقع دمبو أبعد ناحية الشرق.

ولدينا دليل يشير إلى أن أغادس تقع بالفعل بعيدًا إلى الغرب، فقد علِم السيد Magrah أنها تقع جنوب خط عرض ٣٠ غرب فزان وشمال كاشنا، علمًا بأن هذا الجزء من الخريطة العامة لم يَعْتِره أي تغيير.

سادسًا: التُّبُو الرحل[٢٤]

وتعيش هذه القبيلة أقصى الجنوب، وتسكن بحر الغزال الذي علِم هورنمان أنه وادٍ طويل خصيب على بعد سبع رِحلات شمالي باگرمي.

---

[٢١] أرنا هي إحدى قبائل التُّبُو الشماليين، وتتوطن الآن جنوب مدينة الكُفرة، أما ملاحظة الميجور رينيل فمردُّها إلى طبيعة التَّرحال التي كانت سائدة لدى معظم قبائل التُّبُو حتى منتصف القرن العشرين.

[٢٢] بيلما واحة توطنتها قبائل الدَّزا من التُّبُو، وتقع في إقليم أغادس شمال النيجر.

[٢٣] تقع مدينة أغادس شمال النيجر وهي عاصمة إقليم أغادس الذي يتكون من صحراء تِنيري وجبال آير.

[٢٤] التُّبُو الرحل ليسوا قبيلة محددة، فالتَّرحال سمة معظم قبائل تبو التدا حتى منتصف القرن العشرين، بينما تبدو قبائل تبو الدزا أكثر استقرارًا.

ومسافة السبع رحلات شمال باگرمي هذه ربما تضع التُّبُو الرحل في إمبراطورية بُرنو. وعلى أية حال فربما لقوافل التُّبُو الرحل أكثر من مكان، تمامًا كما هو موجود في بُرنو قديمًا وحديثًا. ولهذا فلعل في قولنا إنهم يسكنون أقصى الجنوب مغالطة لأنه قيل إن بحر الغزال في صحراء بِلما.[٢٥]

(١-٢) التُّبُو في ملاحظات ريكلوس[٢٦] (١٨٩٢م)

(أ) المجموعة الحامية-فرع التُّبُو[٢٧]

إن صلات التُّبُو الحقيقية هي موضوع نقاش بين الأنثروبولوجيين، وربما نستطيع الآن تحديدها في ضوء المواد الحديثة التي أحضرها د. ناختيغال Dr. Nachtigal مؤخرًا إلى أوروبا، ونُشرت جزئيًّا في عمله التذكاري: «الصحراء والسودان».

يتضمن نطاق التُّبُو كل شرق الصحراء من خط ١٢ طولًا إلى الحدود المصرية، وبالاتجاه جنوبًا من فزان إلى كانم، ووداي، ودارفور. والتُّبُو فرعان:

(١) التدا The Teda أو التُّبُو الشماليون، وربما أمكننا مماثلتهم بـ «تدامنسي» Tedamansii، القبيلة الغَرَمنتية التي جعل بطليموس Ptolemy موقعها في تريبوليتانيا Tripolitania (طرابلس).

(٢) الدزا The Daza أو التُّبُو الجنوبيون، الذين اندمجوا تدريجيًّا في كانمبو Kanembu، كانوري Kanuri، زَغاوة Zaghawa، بايلي Baele، وأقوام زنجية أو شبه زنجية أخرى في وسط وشرق السودان.

---

[٢٥] لا يقع بحر الغزال في صحراء بِلما إلا إذا اعتبرناه امتدادًا لها من جهة الشرق، وتقع بِلما في الوقت الحالي شرق مقاطعة كانِم.

[٢٦] إليزي ريكلوس Élisée Reclus (١٨٣٠–١٩٠٥م) جغرافي ومصور فرنسي، أَلَّف عمله الرئيسي «الجغرافيا الكونية» Universal Geography في ١٩ جزءًا بين ١٨٧٦ و١٨٩٤م، وقد كرمته باريس بجائزة عن عمله، وعوقب في الوقت نفسه بسبب آرائه السياسية المتطرفة. لم يزر ريكلوس أفريقيا أو الصحراء الكبرى ولكنه اعتمد على مشاهدات وآراء رحَّالة أوروبيين قاموا بزيارتها، وعلى الأخص ناختيغال Nachtigal. وهذا المقتطف ترجمة عن الجزأين الأول والثاني من عمله الرئيسي بعنوان: الأرض وسكانها.

[٢٧] Élisée Reclus, The Earth and Its Inhabitants, Africa, Vol. 1. North-East Africa. Edited by: A. H. Keane. New York, D. Appleton and Company. 1892. PP. 468–469.

وتنتمي لغة التُّبُو إلى هذا السياق تمامًا، مرورًا من التدا الشماليين البُدائيين إلى الدزا الأكثر تحضرًا إلى الكانوري وغيرهم من الأقوام التي تستوطن حوض تشاد، ولكن السمات الطبيعية واللُّغوية تتعاقب عادةً. أي إن التنافر — بمستويات مختلفة — واضح بين الأوضاع الإثنية والفيلولوجية. ويمكن إيجادها في حالتها النقية والأكثر أصالة بين التدا الشماليين، وهي خاصية أثبتها ناختيغال بوضوح، بينما يجب ألا يُميَّز نمط التدا الطبيعي عن نمط الإيموشاغ Imoshagh المجاور أو الطوارق (البربر الحاميين) في غرب الصحراء.

إن لغة التدا لا تُظهر أية صلة سواء بالحامية أو المجموعات الزنجية. إنها تبدو منفردةً،[٢٨] لتُنشئ بذلك نواةَ عائلة لُغوية واسعة الانتشار، مع شُعَب منتشرة في دارفور، واداي، كانِم، بُرنو، باگرمي، وبشكل عام في معظم وسط السودان. وهي تبدو في هذه المنطقة متأثرة بشكل عميق بتأثيرات زنجية، ولكن لا يمكن كشف مثل هذه التأثيرات في مرتفعات تبستي التي ربما كانت مهد عرق التُّبُو ومركز انتشار لغتهم.

يجب اعتبار التُّبُو فرعًا من الجذع الحامي، وقد كان لديهم — خلال عزلتهم الطويلة في تبستي — ما يكفي من الوقت لتطوير لهجتهم المستقلة التي لا تقبل التتبع وصولًا إلى مصدر التُّبُوية-البربرية الشائعة.[٢٩]

وثمة سمة جديرة بالملاحظة في هذه اللهجة وهي غياب الجنس النحوي (أي التذكير والتأنيث)، وتصنيفه في مستوًى أدنى مما في الألسنة الزنجية في مناطق النيل الأعلى وكيليمانجارو، وهي تبدو — على كل حال — كأنها تزوِّدنا بما يمكن تسميته «مادة خام» من الجنس النحوي المتطور في اللغات الحامية.

[٢٨] لأسباب تتعلق بعزلة التدا جغرافيًّا وبيئيًّا واجتماعيًّا عبر مختلِف مراحل التاريخ، فإن لغتهم تعتبر الأكثر «نقاءً» لعدم تأثرها بغيرها بشكل واضح، بينما نجد لغة الدزا متأثرة بلغات الأقوام المجاورة. انظر: ٣-٢.

[٢٩] يفترض ريكلوس صلةً مباشرة بين اللغتين، إلا أن التُّبُوية-البربرية افتراض لُغوي لا يمكن تتبعه إلا عبر سلسلة من المقارنات الأفروآسيوية لاستخلاص المقاطع الجذرية التي تنبني عليها «مفردات الطبيعة» في هذه اللغات. انظر ٣-٣.

(ب) التُّبُو.. سكان تبستي[٣٠]

التُّبُو — وفقًا لناختيغال Nachtigal — هم رجال الجبل أو الصخر Men of Tu، واسمهم العربي: «تبو رشادة» Tubu Reshadeh تكرار للمعنى نفسه تقريبًا، حيث تدل «رشادة» [في اللهجة الليبية] على الصخر والجبل. والتُّبُو — الذين يسمون تِدا في الشمال — يستوطنون منطقة صخرية بالفعل، فعدد كبير منهم مكتهفون Troglodytes يقيمون في كهوف طبيعية، أو في فراغات بين جلاميد صخرية مسقوفة بجريد النخل أو أغصان السَّنط.

وينتشر التُّبُو على مساحات واسعة من الصحراء الشرقية، حيث يُعتبرون العرق الذي يتوطن الجزء الجنوبي من واحة كبابو Kebabo في الكُفرة إلى فزان، ومن واجانغا Wajanga إلى كوار Kawar، على امتداد الطريق بين مرزق Murzuk وكوكا Kuka، أي إن مجالهم يفوق ٢٠٠٠٠٠ ميل مربع في مساحته.

ويبدو أن التُّبُو قد تعرضوا لإزاحة كبرى بالاتجاه من الشمال إلى الجنوب. فهم على الأقل قد سيطروا في السابق على واحة الكُفرة التي يستوطنون منها الآن عددًا قليلًا من القرى التابعة، كما إن مستوطناتهم في فزان أصبحت نادرةً، بينما وطَّن مهاجروهم أنفسَهم جنوبًا بأعداد كبيرة في كانِم Kanem وبرنو Bornu.[٣١]

ولكن ما دام الاسم معروفًا لدى العرب فإن مركز قوتهم كان على الدوام جبال تبستي، بلد الصخور، حيث توطنوا هذه المرتفعات منذ أزمنة سحيقة، ولم تستطع أي حملة حربية اختراق هذه النجود العالية، فهم محاطون هنا من جميع الجوانب بالصحارى أو بالسبل الوعرة التي تحول دون الوصول إليهم، بعيدًا عن طرق القوافل، كما أنهم لا يملكون ما يجذب القبائل المعادية.

إن أي شعب آخر ينتقل فجأة إلى هذه المرتفعات القاحلة سيجد أنه من المستحيل عليه البقاء هنا، فهذه المناطق نادرة الموارد حتى بالنسبة إلى سكانها الأصليين، والوديان في اتجاه الشمال الغربي لا يمكن توطنها، وفي هذه المنطقة الجدباء فإن نقص المؤن الذي يدوم عدة أشهر يُعَد أمرًا معتادًا.

---

[٣٠] Élisée Reclus, The Earth and Its Inhabitants, Africa, Vol. 2. North-West Africa. Edited by: A. H. Keane. New York, D. Appleton and Company. 1892. PP. 428–433.

[٣١] انظر: حول الحراك الديموغرافي: ١–٣.

بعد مطر الصيف تجد قطعانُ الماعز المرعى الذي تحتاجه، وبوفرة تنتج الحليب الذي يُعتبر طعام التدا المعتاد. كما أنهم يجمعون ثمار بعض النباتات، ويزرعون القليل من المحاصيل، ويجمعون ثمار الدوم Doum-Palm، وبدرجة أقل في أمكنة أخرى يجمعون الحنظل الذي يمزجونه بمكونات أخرى لإزالة مرارته، فيُطحن مع الدقيق ويُعجن مع التمر،[٣٢] وبهذا الشكل يصنعون أحد أهم مواردهم الغذائية.

ويتردد التدا خلال موسم التمور على بساتين النخيل لجمع التمر المتساقط الذي يُعتبر ملكيةً عامة للجميع، أو لشراء المؤن ومقايضتها بالحيوانات والأسلحة والمنسوجات.

إنهم نادرًا ما يأكلون اللحم، وهم لا يذبحون حيواناتهم باستثناء الهرِم أو المريض أو المصاب منها، وفي هذه الحالة فإنهم يستهلكون الأضحية بأكملها، وبعد تجفيفها في الشمس يتم سحقها بالحجارة وطحن العظام وتليين العروق، بل حتى الجلود فإنها تؤكل. وخلال زيارة ناختيغال سُرقت أحذيته بينما كان نائمًا وأقام بها اللصوص الجريئون وليمةً لهم.

والتدا الذين يعانون من ندرة المؤن وحياة الشح هذه يستطيعون في المناسبات مع ذلك استهلاك عدة كَميات من الطعام دون قلق، ولكن رفاهيةً كهذه مستهجنةٌ من قِبل كل الذين يفتخرون بسلوكهم القويم!

وبالحياة على نحو ثابت بنظام حِمية شحيح كهذا فإن السكان الأصليين في جبال تبستي بعيدون بشكل طبيعي عن البدانة، ومع ذلك فإن جميعهم أقوياء ورشيقو الأجسام على نحو مذهل. إن الغريب يُذهَل لرؤيتهم يثِبون مرافقين أخفَّ جمالهم في مسير سريع يدوم عدة أيام.

وبأحجامهم المتوسطة غالبًا، فإن مظهرهم يبدو متناسبًا قياسًا بأطرافهم، باستثناء الأيدي والأقدام التي تبدو صغيرة جدًّا على نحوٍ ما. أما البشرة فهي أخف من بشرة السود الذين يقطنون السهول الجنوبية، كما لا يظهر في هيئتهم الأنف الأفطس، والشفاه الغليظة، أو بقية العلامات التي تسِم الزنجي الحقيقي. والشعر أطول وأقل تجعدًا، واللحية كثة بأكثر مما لدى الأقوام السودانية.

نساؤهم فاتنات وهن في ريعان الشباب، كما أنهن متميزات عن أخواتهن اللواتي من شمال أفريقيا بجمالهن الطبيعي، وملامحهن المرنة الرشيقة.

---

[٣٢] من أطعمة التُّبُو التقليدية، وتسمى: «تني أبْرَه» أو «أبُرْ تني».

وتبدو الأمراض نادرة في هذه المرتفعات العالية. مثل دودة غينيا، والدودة الشريطية الحبشية، والجذام الشائع بين العرب، والتهابات الكبد المتفشية في معظم البلدان الحارة، وأمراض الحمى والإسهال التي تبث الرعب في الأراضي الساحلية الأفريقية. إن اعتلال الصحة لا يُعرف في تبستي، وهم أيضًا معافون من الزُّهْري، والغُدَب (سُلُّ الغدد اللنفاوية أو داء المِلك Scrofula)، وكساح الأطفال، وجميع الأوبئة باستثناء الجدري.

ودون أن تكون غير معروفة على الإطلاق فإن أمراض الصدر نادرة هنا جدًّا، ربما بأكثر مما يوجد بين أي شعب آخر، والفضل في ذلك يعود لاضطرارهم لحياة التقشف واعتدال الطعام.

يستطيع التدا مقاومة الجوع عدة أيام، وعندما يتيهون في الصحراء دون طعام أو ماء فإنهم يمضون النهار في مكان ظليل، ويسافرون ليلًا فقط. وإذا وجدوا عظم جمل طحنوه وجعلوا منه نوعًا من العجين بخلطه بدماء يأخذونها من أوردة مطاياهم. وموردهم الأخير، عندما تبدأ غيبوبة الجوع بالزحف عليهم، هو أن يثبِّتوا أنفسهم على ظهور مطاياهم معتمدين على غرائزها في الوصول إلى أقرب مكان آمن.

ومما هو جدير بالملاحظة — بقدر ليس أقل من قوتهم وجمالهم الطبيعي — هو دهاء وذكاء التُّبُو. فالضرورة — وهي معلِّم عظيم — طورت قدراتهم الذهنية وشحذت حواسهم، فهم يجدون طريقهم عبر برية غير مطروقة أبدًا بنوع من الإلهام غير المفهوم بالنسبة إلى الأوروبي، وهم يُظهرون — في جميع الظروف — مهارةً وبراعةً مذهلتين متَّسمتين بقدر كبير من الفصاحة والمكر والابتكار. إن نضالهم الصارم من أجل الوجود جعلهم خشني الطباع، شرهين، ومتشككين. وتنعكس عواطفهم في ملامحهم وتعابيرهم القاسية، وتبدو عبارة: «كل شخص لنفسه» كأنها موسومة على ملامح التُّباوي الذي نادرًا ما يُرى ضاحكًا أو مسترخيًا مع رفاقه. وليست الولائم الأهلية مفعمة بالغناء والرقص كما هي مآدب اللهو الزنجية، ولكنها تُستخدم وسيلةً لجدل لا يخلو من ارتجال وتنافس.

التباوي مرتابٌ دائمًا، فهو إذا ما التقى بابن بلده في الصحراء يكون يقظًا ألا يقترب منه دون حذر. وما إن يكون أحدهما على مرأًى من الآخر فإنه عادةً ما يتوقف فجأة، ويجثم ثم يرمي لثامه على الجزء الأدنى من وجهه — كما يفعل الطوارق — ويُمسك بيمينه رمحَه الذي يلازمه دائمًا، كما يمسك بيساره الشنگر منگر Shangermanger، أو المِخطاف Bill-Hook، وبعد هذه المقدمات التمهيدية يبدآن تبادل المجاملات، متسائلَيْن عن صحة كل منهما وقراباته العائلية، ويستقبل كل منهما إجابة الآخر بتعابير الشكرِ لله.

وعادةً ما تستغرق هذه الشكليات بعض الدقائق، وهو الوقت الذي يستغرقه كل منهما في دراسة مظهر الآخر، ومراعاة الطريقة الأمثل للتعامل معه.

ويُبدي التُّبُو في تعاملاتهم التأثيرات المتعددة لدى مختلِف الأعراق من الزنوج والعرب والطوارق الذين يتصلون بهم. فمِثل شيلوك Shilluks[٣٣] النيل الأبيض يعلِّمون أصداغهم بندوب قليلة، ومِثل الطوارق يرتدون اللثام كلما استدعى الأمر المرور في جو الصحراء المغبَّر الجاف، وأخيرًا فإنهم باعتناق دين العرب قد تبنوا عدة أعراف وتقاليد من هذا العِرق، ولكنهم يَبدون أساسًا منتمين إلى الأصل الزنجي الحقيقي.

[والتدا] أقارب الدزا الذين يتوطنون إلى الجنوب في بُركو Borkou والأقاليم المتاخمة لبحيرة تشاد Tsad.

اللغتان متصلتان، وقريبتان من لغة كانوري Kanuri التي تنتشر على ضفاف البحيرة غربًا، لتؤلف بذلك عائلة لُغوية متميزة. وتُعَد لهجات البايلي Baeles وزَغاوة Zaghawas على تخوم دارفور فروعًا نائية من هذه العائلة.

يبدو أن الأقدم في هذه المجموعة [اللُّغوية] والأكثر عتاقةً هي اللهجة التي يتحدثها التدا، أو التُّبُو الشماليون الذين يمكن — بناء على ذلك — ملاحظة أنهم يمثلون هذا العرق نمطيًّا، فهم — في كل الأحوال — الأقل اختلاطًا. وسكان تبستي متجانسون تمامًا، وهم أنقياء تمامًا من التمازج مع المهاجرين العرب أو البربر. ولكن هذا العرق المتميز، وأحد أكثر الأعراق أهمية في شمال أفريقيا، على الأقل بالنسبة إلى الرقعة المترامية الأطراف التي يتوطنها، هو أحد أقل أعراق القارة ضآلةً من الناحية العددية. ووفق ناختيغال Nachtigal فإن «الأمة» بأسرها لا تكاد تناهز أكثر من ثمانية وعشرين ألف نسمة، منهم ما لا يقل عن اثني عشر ألفًا منتشرين حول مرتفعات تبستي الشاسعة.

إن الدزا بُركو هم أقل عددًا من أقاربهم تِدا تبستي،[٣٤] على الرغم من أن إقليمهم يحتمل تعدادًا أكبر بكثير، ويقدرهم ناختيغال بعدد خمسة آلاف على الأغلب، بينما البدو

---

[٣٣] الشلك أو الشلوك أو الشيلوك قبيلة سودانية من شعب اللوه أو اللوو Lou الذي يمثل مع الدينكا والنوير شعب دولة جنوب السودان الحالية.

[٣٤] هذا صحيح بالنسبة إلى الزمن الذي كتب فيه ريكلوس مشاهداته (١٨٩٣م)، أما في الوقت الحالي (٢٠١٣م) فإن تعداد دَزا يفوق تعداد تِدا، لعدة أسباب أهمها أن دَزا مقبلون على التمازج مع الأعراق الأخرى بعكس تِدا الذين يعيشون شبه منعزلين في الصحراء.

المرتحِلون من الإقليم نفسه، وهم ينتمون إلى بولغِدا Bulgeda، ربما تراوح عددهم بين خمسة آلاف وسبعة آلاف، وهم بين فلاحين ورعاةِ مواشٍ.

الدَّزا وبُلغِدا يختلفون قليلًا عن الجبليين في تبستي [أي تِدا]، فهم مثلهم رفيعو القَوام ونشيطون وأذكياء، وعادةً ما يكونون أصحاء خالين من الأمراض، ولكنهم أقل رشاقة وجمالًا. وبوجهة نظر إثنولوجية فإنهم بهذا الاعتبار يشكلون عرقًا انتقاليًّا بين التُّبُو والزنوج الفعليين الذين يتاخمون بحيرة تشاد، كما أن كلامهم يشبه أيضًا كلام التُّبُو وزواغة والفروع الأخرى من هذه المجموعة.

الدزا يَسِمون أصداغهم بخطين رأسيين نادرًا ما يكونان مختلفَين عما لدى جيرانهم، ولكنهما كافيَين أمام عينٍ خبيرة كي تميز موطنهم الفعلي. وللدَزا أيضًا عادة إزالة لَهاة الحلق والأسنان القواطع من أبنائهم في سن مبكرة جدًّا.

من المعتقد أن كلًّا من التُّبُو [أي التدا] والدزا تحولوا إلى الإسلام منذ قرنين أو ثلاثة قرون خلت. فهم مسلمون غيورون ويؤدون الصلوات اليومية بانتظام كبير، وفي زمن زيارة ناختيغال، في ١٨٦٩م، لهم كانوا قد تبِعوا السنوسية،[٣٥] وقام بعضهم برحلة شاقة إلى واحة واو Waw Oasis وزيارة فرع الزاوية السنوسية الذي تم تأسيسه هناك للاستفسار عن نقاط تتصل بالعقيدة وطلب المشورة حول بعض الأحكام.

وإذا كان الدزا قد وُصفوا مرارًا بأنهم وثنيون من قِبل القبائل المجاورة، فباستخدام صفة التوبيخ، يشعر أتباع النبي الغيورون أنهم محقون دون أن يساورهم الندم إذا ما قاموا باسترقاقهم. ولا شك في الوقت نفسه أن بعض الخرافات — المتبقية من الديانات القديمة — ما زالت تواصل حضورها بينهم. فالتضحيات — مثلًا — يستمر تقديمها للينابيع، والتعاويذ السحرية ذات الأصل الوثني، بجانب آيات القرآن والتمائم المتحدرة من جيرانهم الساميين، ما زالت أيضًا قيد الاستعمال. بينما العديد من شعائرهم الدينية تشبه تلك التي تمارسها المجموعات الوثنية في السودان.

الحدادون مرهوبو الجانب بوصفهم سحرة أقوياء، ويُنظر إليهم — في الوقت نفسه — باعتبارهم منبوذين. لا أحد من التُّبُو، بأدنى شعور من احترام الذات، يقبل أن يصاهر عامل حدادة، أو حتى أن يتنازل متلطفًا فيعتبره صديقًا له. وكلمة «حدَّاد» هي إحدى

[٣٥] نفَذ السنوسيون عن طريق تبستي إلى كَوار وما يليها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولدعم سيطرتهم الدينية على الأهالي قاموا بتجريد حملة عسكرية سنة ١٨٩٥م لم تقابَل بمقاومة تذكر.

أكثر الكلمات دلالةً على التحقير في لغتهم، ولكنها لا تقال أبدًا لهؤلاء الذين يعملون في الحدادة، فالناس يحتاطون ألا يُهينوهم أو يُغضبوهم خشية التعرض لانتقامهم السحري.

إن نظام التُّبُو الاجتماعي ليس مؤسَّسًا على مبدأ المساواة، فكل قرية لها سلطانها (دَرْدَيْ Dardai)، ونبلاؤها (مَيْنا Maina)، مثلما لها عامَّتها تمامًا. وفي الوقت نفسه فإن الطبقة العليا لديها فعليًّا سلطة بالغة الضعف، أما السلطة الفعلية فهي للقانون العرفي غير المكتوب، فهم لا يحتفظون أبدًا بالجنود ليفرضوا أحكامهم أو مراسيمهم باستخدام القوة، كما لا يحافظون على أي نظام لتحصيل الضريبة يستطيعون به أن يحيطوا أنفسهم بالخدم المتملقين، ولكنهم يتصرفون كما يتصرف القضاة في كل الأحوال التي لا تتطلب الإقرار بقانون الثأر. وهم يناقشون أيضًا احتمالات السلم والحرب، كما يتم التعامل مع مجمعهم بكل احترام. والامتياز الوحيد الذي يتمتع به النبلاء دون العامة هي تلك الشهرة الجوفاء لكونهم قادرين على التباهي بما لديهم من «دم أزرق».

كما لا تُحكَم العائلة على نحو مستبد بأكثر مما يُحكم العامة. فالزوجة — كونها مميزة بمآثرها في التنظيم المنزلي، والحفاظ على النظافة، وحسن التسيير، والأمانة — يُنظر لها ندًّا مساويةً زوجها، وعلى الرغم من أن تعدد الزوجات مشرَّع في الإسلام إلا أنه من النادر الأخذ به، إلا أن المهاجرين إلى أراض أجنبيةٍ عادةً ما يتخذون زوجةً ثانية بشكل مؤقت.

الزواج عادةً ما تسبقه فترة خطوبة طويلة تُعَد رابطةً ملزمةً من روابط الزواج، وعند موت العريس فإن الخطيبة ترتبط بأخيه أو أقرب أقاربه. وكما لدى الكفار Kafirs وعدة شعوب أفريقية أخرى فإن تغير وضع الزواج حدثٌ بالغ الأهمية إلى درجة إبقائه سرًّا. الزوجة بشكل خاص تصبح ممنوعة بقواعد السلوك الاجتماعي من إبداء أدنى تلميح يشير إلى هذا الموضوع، أو مخاطبة زوجها على الملأ، أو الأكل معه. كما ليس له الحق أبدًا في أن يلمِّح إلى حماه أو حماته، وهو يتجاهل في الواقع عَلاقات زوجته، بل هو مطالب بأن يغير اسمه، كما لو كان مدانًا بجريمة قتل.

(ج) سمات الإقليم

مركز السكان الرئيس في تبستي هو برْدَيْ Bardai الواقعة على المنحدر الجبلي الشمالي الشرقي، حول منتصف مسار وادي كُنري Cuneri الذي بعد استقبال عدة روافد يتدفق

شمالًا في اتجاه واو Waw، والمياه الدافئة التي يُدفقها ينبوع بِركِه Yerikeh[٣٦] الشهير هي جزء من الحوض الذي يشكله هذا السيل.

تنتشر حول برْدَي أكثر أيك النخيل كثافةً في تبستي، ولهذا السبب فإن هذه المنطقة يزورها جميع أهالي التدا تقريبًا بحثًا عن التمور. كما يألفون أيضًا التلال المحيطة في جماعات، ويحتفظ معظم تجارهم بعَلاقات تجارية مع مرزق في فزان، ويهاجر آخرون إلى الواحات الجنوبية في بُركو والمناطق المجاورة، لكنهم فقدوا طريقهم إلى واحة وادي كار Wadi Kar الغامض الذي يبعد قدر خمسة أيام سفرًا باتجاه الجنوب الغربي من الكُفرة والذي وُصف اكتظاظه بالنباتات النامية فيه على نحو أسطوري، بأنه — مثل كل الواحات التي نُسيت طريقها — «فردوس مفقود».

إن واحات بُركو التي ترويها المياه العذبة أو المالحة تنتج تمورًا أفضل مما تنتجه تبستي. كما تزدهر أشجار الدوم، ويمكن استزراع عدة نباتات سودانية هنا بنجاح. لكن خلال زيارة ناختيغال كانت الحدائق مهجورة، وغزت الرمال أيك النخيل في عدة أمكنة، وهجر السكان قراهم، وقلبت الحيوانات البرية أكواخهم المنسوجة من الحصير. أولاد سليمان، والطوارق في السهول الغربية، ومحاميد واداي Waday واصلوا القدوم إلى هذه الواحات لنهب مخازن القمح وأَسْر النساء والأطفال وذبح جميع من يقاوم عمليات السطو هذه.

هكذا يجد الدَّزا أنفسهم محرومين من كل ممتلكاتهم المنقولة، وكانوا إما يعودون إلى العمل من جديد، وإما يردُّون بجولة مضادة من الغزو والسلب بُغية جمع ما يكفي من المال لافتداء عائلاتهم المسترقَّة.

التُّبُو في مشاهدات حسنين[٣٧] (١٩٢٣م)

«كانت واحات «الكُفرة» في أيام قبيلة «زوي» البدوية التي انتزعتها من قبيلة التُّبُو السود مركزًا مهمًّا للسطو والاغتيال في صحراء ليبيا، وكان أفراد هذه القبيلة المتمردة ميالين للقتال لا يخضعون لقوة أو قانون ولا يرحمون من يخترق أراضيهم، فلم تخْلُ قافلة تمر

[٣٦] تعني كلمة Yerikeh في لغة التُّبُو: ينبوع أو مصدر ماء.

[٣٧] قام الرحَّالة المصري أحمد محمد حسنين برحلة على ظهور الإبل إلى الصحراء الكبرى عام ١٩٢٣م، بهدف جمع وإعداد البيانات الخاصة برسم الخرائط والمسافات والأرصاد الفلكية، فاتجه من السلُّوم

بالكُفرة من النهب والسلب أو الاضطرار لدفع جزية. وجاء المهدي [السنوسي] فجعلهم ينزلون عن طلب تلك الجزية لأنه أراد أن يؤمِّن الطريق الممتدة في صحراء ليبيا من الشمال إلى الجنوب، وأن ينمي تجارة تلك الأصقاع، وعمل على ذلك حتى قال لي مطاري (من شيوخ قبيلة «زوي» في الكُفرة) أنه صار في وسع المرأة السير من برقة إلى واداي دون أن يتعرض لها أحد» (ص٥٧–٥٨).

«إن البدوي يميز أثر جِماله، ويمكنه أن يتبين إن كانت الجمال التي سبقته في الطريق مِلكًا لرجال قبيلة مجاورة له أم لا، ويعرف أيضًا جِمال التُّبُو من شكل أخفافها واقتفاء خطواتها. وجِمال التُّبُو أصبر جِمال البدو على السير، ويمكن استخدامها في الشمال بصحراء برقة وفي الجنوب بأراضي السودان» (ص١٤٤).

«كان التُّبُو يجرون يمينًا ويسارًا يتقدمون القافلة للبحث عن رَوْث الجِمال ليتخذوا منه وقودًا، فقد اعتادوا أن يعيشوا بمعزِل عن بقية أفراد القافلة، ومالت نفوسهم إلى الاستئثار بنار خاصة يوقدونها ليلًا على مسافة قصيرة من مضرِب الخيام. وكان رَوْث الجمل كل ما تصل إليه أيديهم من الوقود فكانوا يستفيدون من سرعة عَدْوهم ويَحيدون عن طريق القافلة مسافات بلغت أربعة أميال في بعض الأحايين للبحث عن هذه المادة الثمينة!» (ص١٤٨).

التُّبُو «قلما يستعملون النار في تحضير طعامهم وإن أنِسوا إليها وفرحوا بها، وهم يجففون لحاء النخلة عند قمتها ويطحنونه ويصنعون منه مسحوقًا يضيفون إليه بلحًا وجرادًا مسحوقَين» (ص١٤٩).

«التُّبُو يتعمدون أن لا يتركوا في طريقهم شيئًا من أشيائهم لأنهم يخافون خرافة مؤداها: إن من يلتقط شيئًا سقط منهم لا بد أن يستولي عليهم يومًا من الأيام.

على شاطئ البحر الأبيض المتوسط إلى الأُبَيِّض عاصمة مديرية كُردُفان بالسودان، مرورًا بواحة جالو والجَغبوب إلى الكُفرة والعوينات، قبل أن يتوغل في بلاد السودان، وهي مسافة قُدِّرت بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلومتر. يقول حسنين في مقدمة هذا الكتاب: «كان أكبر همي طوال أيام حياتي أن أجوب صحراء ليبيا وأصل إلى «الكُفْرة»، وهي مجموعة من الواحات في صحراء ليبيا لم يزرها قبلي إلا مستكشف واحد. فقد نجح المستكشف الألماني المقدام رولفس سنة ١٨٧٩م في القيام بهذه الرحلة، ولكنه لم يخرج منها إلا بحياته بعد أن خسر جُلَّ مدوَّناته ونتائج ملاحظاته العلمية» (ص١٤–١٥). ولم يخصص الرحَّالة فصلًا واحدًا متكاملًا للتُّبُو، بل بث أحاديثه عنهم بين ثنايا كتابه المعنون: «في صحراء ليبيا».

وهم قوم ذوو أجسام متينة البناء وأهل جِد وعمل ولكنهم شديدو السذاجة في نظام معيشتهم وتفكيرهم، على أنهم الآن آخذون في الاختلاط بالبدو ومحاكوهم في كثير من طبائعهم» (ص١٤٩).

«كنت أعلمُ أن «العوينات» كانت محط قبائل التُّبُو والقُرعان في طريقهم شرقًا إلى مهاجمة الكبابيش والفتك بهم، وكان موقع «أَركَنو» و«العوينات» صالحًا لهذا الغرض لما غزُر فيهما من الماء الذي تحتاجه هذه القبائل المغيرة. وكانت هاتان الواحتان من البعد عن الكبابيش بحيث لا يحسَرون على محاولة الانتقام أو استرداد ما ابتُز من أشيائهم» (ص٢٣٢).

(٢) السلطان شهاي

من أبرز سلاطين فرع تِدا من التُّبُو، وهو من قبيلة تمارة، من أَرْدِي دُگا (أحفاد أردي) الذين يقتصر عليهم (مع أحفاد لاي وأحفاد أَرَمِهْ) تداول السلطنة أو المشيخة. وقد تولى شهاي السلطنة مذ كان شابًّا فتيًّا في أواخر القرن التاسع عشر، إلى أن تُوُفِّيَ في خمسينيات القرن العشرين، ويوجد قبره في بَرْدَيْ بشمال تشاد. وكان يوصف بلقب «كوندودي» أي الرجل الفخور، أو ذو الكبرياء.

يعرفه التُّبُو باسم «شهاي بوغر»، أو «دَرْدَي شهاي» أي السلطان شهاي. ويَرِد عند بول مارتي بالاسم المعروف لدى الفرنسيين: «ماي شافامي»، ويعتبره «أشهر زعيم في تبستي»، ولكن أيضًا: «قاطع طريق»، وهي صفة نمطية أطلقها الفرنسيون والإيطاليون على المقاتلين من حركة التحرر الوطني ومقاومة الاستعمار،[٣٨] وقد كان لشهاي أحد أكبر الأدوار في مقاومة الاستعمار الفرنسي والدفاع عن تشاد وفزَّان، بالرغم من أنه لم يكن معروفًا لدى الفرنسيين بادئ الأمر، إذ يبدو أنهم فوجئوا بقيادته الكاريزمية ودوره في تنظيم التُّبُو عسكريًّا. يقول مارتي: «حتى عام ١٩٠٠م لم تكن لنا عَلاقات تذكر مع زعيم تبستي، لكن قواتنا ظهرت في ذلك العام حول تشاد والتقينا به مرارًا في أثناء الاشتباكات المسلحة»، ثم يمضي بعد ذلك قائلًا: «قد يطول الحديث عن تفاصيل صراعاتنا مع ماي شافامي حيث يتطلب ذلك سرد تاريخ تشاد بأكمله.»[٣٩] فـ «هذا الرجل الذي جال في

[٣٨] انتشرت هذه الصفة باللهجتين الليبية والتونسية باسم «الفَلَّاقة».

[٣٩] مارتي: ٥٤.

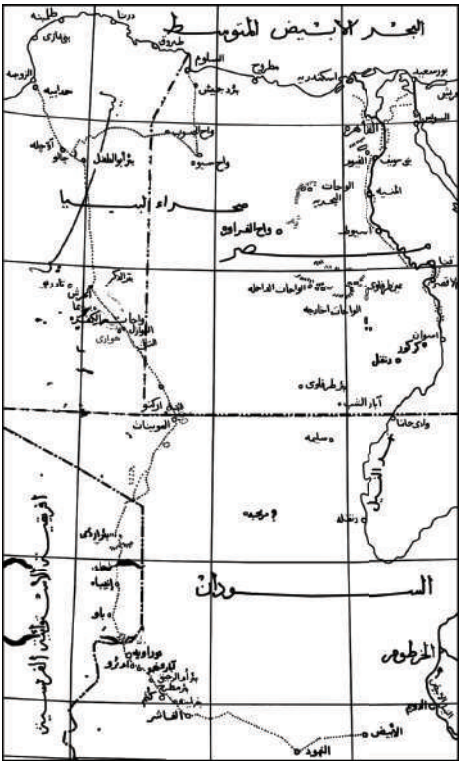

مسار رحلة محمد أحمد حسنين. المصدر: حسنين (١٩٢٣م) (لاحظ اختلاف خط الحدود ووقوع الجَغبوب وأَركَنو ضمن الحدود المصرية والعوينات ضمن حدود السودان).

الصحراء طيلة ٥٠ سنة واجه تغلغلنا بكل أشكال المقاومة الممكنة، لكنه يملك من الحكمة والحرية ما يجعله يدرك أن الزمان قد تغير وأنه ينبغي اللجوء إلينا.»[٤٠]

تميز عهد السلطان شهاي بالعمل على استقرار قبائل التُّبُو وتحولهم إلى كِيان مستقل بفضل جهوده التوحيدية وعمله الدءوب من أجل جمع قبائل التُّبُو ولم شمل التدا والدزا، وقد استطاع أن يجمعها حوله فألَّف بينها ووحَّدها على المصالحة والاتفاق، فكان

[٤٠] ن.م.

التُّبُو في عهده أقرب إلى الكِيان المستقل الذي يجمع جنوب غرب ليبيا وشمال تشاد وشرق النيجر، وهذه هي حدود كِيان التُّبُو التاريخي-الاجتماعي، إلا أن زعيم التُّبُو الجنوبيين، گتي[٤١] Getty، ساءه أن يتبع قومه زعيمًا (دَرْدَي) من الشمال، فعمل على إحباط هدف شهاي بالتحالف مع الفرنسيين الذين أطلقوا عليه لقب «رجل فرنسا في تشاد».

في إطار سياسة شهاي التنظيمية قام هذا القائد بتدوين «كُتُبا»، وهو مجموع القوانين العرفية التي يحتكم إليها التُّبُو (انظر الفصل الثاني)، كما عمل على تكوين جيش من أبناء التُّبُو لمقاومة الاستعمار الفرنسي، ودعم حركة الجهاد الليبي ضد الاستعمار الإيطالي.

ويذكر الأهالي من التُّبُو أنه قام بتأسيس المنارات التعليمية (الكتاتيب) ومكافحة الأمية بنشر اللغة العربية والمعرفة الشرعية، وكان يطمح إلى إرسال المتفوقين من أبناء التُّبُو إلى الأزهر بمصر والزيتونة بتونس.

وفي ظل البيئة الصحراوية البالغة القسوة عمل على تحسين مستوى التُّبُو الاقتصادي وتطويره بتفعيل حركة التجارة بين الأقاليم الصحراوية، وتركز هذا النشاط في منطقة تِبستي وما حولها، وقد استطاع شهاي تنظيم التجارة وتوجيه مساراتها وقوافلها وَفْق ما تقتضيه مصلحة التُّبُو.

ولتركيز هذه الجهود والحيلولة دون تشتتها على نطاق الصحراء الشاسع أراد تكوين عاصمة للتُّبُو، وقد تركزت جهوده على النهوض بمدينة «بَرْدَيْ» بشمال تشاد واستقرارها ووَصْلها بالمستوى الحضاري الذي يؤهلها لأن تقوم بدور العاصمة السياسية، فأصبحت الإقليم الأكثر تحضرًا واستقرارًا.

إلا أن الصحراء آنذاك كانت مكتظةً بالصراع بين عدة قوًى خارجية؛ فالفرنسيون في السودان الغربي والأوسط، والأتراك في طرابلس وفزان، والسنوسيون في برقة والكُفرة، وكانت مواطن التُّبُو حول تبستي مسرحًا دائمًا للصراع، أما الإيطاليون في الشمال فكانوا يَدْنون شيئًا فشيئًا من احتلال طرابلس.

لم يرَ شهاي أن السنوسيين يختلفون كثيرًا عن الفرنسيين، إذ هم دخلاء أولًا، ويسعون إلى جباية الضرائب ثانيًا، وإن أعطوها اسمًا دينيًّا، ولم تتجاوز عَلاقتهم به جمع

[٤١] يُكتب اسمه في المصادر العربية: غيطي.

ريع الزكاة وتأمين طرق القوافل، كما لم يتلقَّ منهم دعمًا واضحًا لمواجهة الفرنسيين، لذلك فقد اتجه، بعد أن هُزم التُّبُو في معركة جَرَت في «عين قلق» أمام القوات الفرنسية، إلى باشا مرزق لدعمه بالسلاح والجنود الأتراك، إلا أن الباشا تذرَّع بصغر الحامية وانشغالها بتأمين القوافل. هكذا وجد أن التُّبُو يقفون وحدهم في مواجهة الفرنسيين الذين كانوا ينفذون سياسة الحصار والتجويع بأسلوب همجي، يقول عنه مارتي: «لأجل حمل التُّبُو على الاستسلام، وفي محاولة للقضاء عليهم بواسطة التجويع يتم كل عام منذ ١٩١٠م حرق محاصيل التمور على عين المكان. إنه أسلوب همجي نوعًا ما لكنه فُرض علينا عقب الوضع الذي أصبح فيه مستحيلًا علينا ضمان الأمن الدائم.»[٤٢]

بالإضافة إلى هذا كانت مجموعات الطوارق تتوغل شرقًا لتُغِير على قبائل التُّبُو، كما أعلن گتِّي زعيم التُّبُو الجنوبيين، تبعيته غير المشروطة للفرنسيين، ولم يجد شهاي من وسيلة أخرى لتأمين قبائل التُّبُو سوى التفاوض.

أرسل شهاي إلى الفرنسيين ليعلن لهم عن رغبته تلك، على أن يتولوا هم إيقاف توغل الطوارق شرقًا، فطلب منه الفرنسيون أن يكتب بما يفيد رغبته تلك، فكانت رسالته التي وقعها معه متضامنًا زِطِّيمي (زعيم تُبُو تِبستي الغربي، وكان آنذاك رجلًا مسنًّا) وهي — كما نقلها مارتي — على النحو التالي:

«كل الأعيان وكل رجال تبستي.
دَرْدَي شهاي[٤٣] وزطيني كتبا هذه الورقة.
لقد اجتمع الجميع وتحدثوا ويريدون الآن طاعة دَرْدَي شهاي.
إن دَرْدَي شهاي يريد أن يعيش بعَلاقات طيبة مع رجال إستانبول.
كل رجال تبستي يقولون: إنهم يريدون الاستماع إلى كلام دَرْدَي شهاي.
إن سلطان إستانبول يقول: إنه لا يريد رجالًا قراصنة، كذلك يقول دَرْدَي شهاي: إنه لا يريد رجالًا قراصنة. كل التُّبُو يقولون: بعد الآن لن نسرق أبدًا ولن نقوم بالحرب وسنطيع قائدنا، بعد الآن سيهدأ كل التُّبُو. إنهم يريدون

[٤٢] مارتي: ٤٧.

[٤٣] في الأصل: ماي شافامي، وقد أثبتنا هنا الاسم الذي عرَفته به قبائل التُّبُو.

تبادل الأسرى مع الطوارق، وينبغي للنقيب [الفرنسي] أن يقول للطوارق: التُّبُو لن يحاربوكم فلا تحاربوهم. عندما يهاجم الغزاة الطريق لا تستطيع القوافل السير فيها، لذلك هم يريدون أن تبقى الطريق سالمة.

لقد أصبح التُّبُو الآن يطيعون دَرْدَي شهاي وزِطِّيني، وينبغي على النقيب أن يبلِّغ الطوارق بذلك.

إن دَرْدَي شهاي وزِطِّيني وكل أعيان تبستي يطالبون بالسلام مع النقيب ومع الطوارق، ويريدون تبادل الاتصالات والمبعوثين بين النقيب ودَرْدَي شهاي ليحل السلام بينهما، وكذلك بين دَرْدَي شهاي والطوارق، وليكن بإمكان الطوارق الورود على تبستي ومرزق للاتجار، وإذ يأتون للاتجار لا ينبغي لهم أن يسرقوا منا كما كانوا يفعلون سابقًا.

وعندما يأتي رجال دَرْدَي شهاي إلى كوار سيكونون حاملين تراخيص منه، لذلك فإن رجال التُّبُو الذين لا يحملون مثل هذه الأوراق ليسوا من رجال دَرْدَي شهاي وقد يُقتَلون. أما الرجال الذين يقودهم دَرْدَي شهاي فيأتون حاملين الترخيص دائمًا، ولا يبقَون أكثر من ثلاثة أيام، وعندما يكتب النقيب رسالته ينبغي أن يسلمها لرجلين يحملانها إلى دَرْدَي شهاي، وعليه كذلك أن يبعث برسالة [مماثلة] إلى الطوارق.

دَرْدَي شهاي يحيي النقيب [الفرنسي].

كُتبت هذه الرسالة يوم الثلاثاء من الشهر القمري الموافق ١٠ من شهر عيد الأضحى. كتبها المرابو (المرابط) خليل بن مَمَدو كْواكْوا.»[٤٤]

بعد هذه «الاتفاقية» اضطُر شهاي إلى القيام بتعهداتٍ مرافِقة، وهي:

- وقف تحالفه مع أهالي الكُفرة والسنوسيين.
- تسليم الأسرى الذين في حوزة التُّبُو.
- إعادة قطعان الماشية التي تم السطو عليها.
- تقديم ٢٠٠ قطعة سلاح.[٤٥]

[٤٤] مارتي: ٥٥. لم أعثر على تأريخ هذه الرسالة، ويقول أبناء التُّبُو إنها كانت سنة ١٩١١م.
[٤٥] مارتي: ٥٦.

كانت الحرب الأوروبية (١٩١٤–١٩١٨م) تستعر آنذاك، وتقهقر الإيطاليون إلى الساحل الليبي، وازداد ضغط المجاهدين الليبيين، الأمر الذي زاد من هشاشة وضع الفرنسيين في الصحراء وقدرتهم على الاحتفاظ بمستعمراتهم، وقد ترك زِطِّيمي جبال تبستي وانضم بقواته إلى شهاي في الشرق، وجرت معركة بردَيْ في ٢٣ يونيو ١٩١٤م التي انتهت بسيطرة الفرنسيين عليها بعد أن تكبدت قواتهم خسائر جمة. ولجأ شهاي وعدد كبير من قواته إلى أوزو وزوماري، ولاحقتهم القوات الفرنسية فتحصنوا بمواقع منيعة في أوزو، وانتقل بعضهم إلى أبو. وبسبب كبر سنه تم أسر زِطِّيمي وأُجبر على إعلان رضوخه لفرنسا.

دعا الفرنسيون شهاي إلى الالتزام بالاتفاقية السابقة، فأرسل مبعوثيه إلى بِلما يوم ١٥ مارس ١٩١٥م برفقة ٦ أسرى، و٤ جمال، مع رسالة شفوية تقول إنه لا يستطيع ضمان تسليم التُّبُو لأسلحتهم، إلا أن الفرنسيين اعتبروا ذلك إعلانًا منه عن التنصل من تعهداته، وأصبحوا يشيرون إليه في مراسلاتهم الرسمية باسم «زعيم المنشقين»، أما هو فقد استغل هذه الهدنة المؤقتة ليعيد تجميع قواته في الشمال، ثم تمكن في ٢٧ يوليو ١٩١٦م من تحرير تبستي، ولاحق القوات الفرنسية إلى تخوم بِلما، وهو التحرير الذي سجلته الوثائق الرسمية الفرنسية باعتباره «إخلاءً سريعًا لتجنب الفشل والإذلال.»[٤٦]

كان الفرنسيون يسعَون لاستكمال سيطرتهم على مواطن الطوارق في الغرب واستمالتهم لإلقاء السلاح، بالإضافة إلى دعمهم زعماءَ مجموعاتٍ صغيرة من التُّبُو في بِلما وكوار، وذلك لإحكام السيطرة على الصحراء بأسرها. وأمام إدراك شهاي نوايا الفرنسيين قرر أن يبادر إلى خطوة من شأنها تهدئة الأوضاع وتجنيب قبائل التُّبُو عبء حرب طاحنة، فرحل في ١٩ أكتوبر ١٩٢٠م مع عدد من أعيان التُّبُو الشماليين إلى بِلما، والتقى بالعقيد رويف مفوَّض الحكومة الفرنسية، ليعلن أمامه القبول بعدم مهاجمة الفرنسيين أو حلفائهم بغتةً، مع التعهد بالإيفاء بالتزاماته الأخرى، إلا أنه اشترط احتفاظه بالسلاح حتى يوافق، كما اشترط دعمه لإزاحة خصمه گَتِّي (رجل فرنسا في تشاد)، والتخلص من متمردي التُّبُو الذين كانوا يتحصنون بمناطق وعرة من جبال تبستي، وقد استجاب الفرنسيون لبعض شروطه، إلا أنهم رفضوا التخلص من الموالين لهم.

[٤٦] مارتي: ٦٤.

استمرت مقاومة شهاي دون انتظام، واستطاعت قواته تأمين وجود قبائل التُّبُو باللجوء إلى مواقع صحراوية منيعة في الشمال الشرقي، وكان مضطرًّا في أحيان كثيرة إلى القتال على جبهتين اثنتين؛ الأولى: باتجاه الجنوب ضد الفرنسيين في بَرْدَي، والثانية: باتجاه الشمال ضد الإيطاليين في الكُفرة.

لم ينل شهاي ثقة الفرنسيين في أيٍّ من مراحل حياته، ولا ثقة الإيطاليين بالطبع، وعاش شبه مطارد من الطرفين، ولكنه لم يستكِنْ أبدًا للتفاوض أو الرضوخ.

المراجع

(أ) الكتب

- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.
- حسنين، أحمد محمد. **في صحراء ليبيا**، مطبعة مصر، د.ت.
- رولفس، غيرهارد. **رحلة عبر أفريقيا**، ترجمة: عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسلة نصوص ووثائق (٢٧)، ١٩٩٦م.
- كاندماي (مارك أورتمان) وآخرون، **حِكم وأمثال للتبو**، مؤسسة سِل (SIL)، انجامينا، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.
- كواكوا، علي حسن. **كُنَّاش للأمثال والحِكم التُّباوية**، مخطوط.
- كي. زيربو، ج. **النظريات المتعلقة بالأعراق وتاريخ أفريقيا**، ضمن الموسوعة الأفريقية، ج١، اليونسكو، ١٩٨٠م.
- اللهي، عبد السلام. **مدخل إلى قبائل التُّبُو**، مخطوط.
- مارتي، بول: **دور العرب الليبيين في مقاومة الغزو الفرنسي**، مقتطفات من مَجلة دراسات إسلامية. ترجمة: محمد عبد السلام العلاقي. جمعية الدعوة الإسلامية، ٢٠٠١م.
- المحجوب، عبد المنعم. **ما قبل اللغة – الجذور السومرية للغة العربية واللغات الأفروآسيوية**، دار تانيت، ٢٠٠٨م.
- المحجوب، عبد المنعم. **معجم تانيت**، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ٢٠١٢م.
- هورنمان، فريدريك. **يوميات الرحَّالة فريدريك هورنمان، الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزَّان عام ١٧٩٧م**، تعريب مصطفى محمد جودة، مكتبة الفرجاني، طرابلس-ليبيا، ١٩٦٨م.

- Baroin, Catherine. *Tubu, The Teda and The Daza*. Colombia University, The Rosen Publishing Group, New York.
- Bates, Oric. *The Eastern Libyans*, An Essay, Macmillan and Co. London, 1914.
- Nachtigal, Gustav. *Sahara and Sudan. (III) The Chad Basin and Bagirmi*. Translated by Allan G. B. Fisher and Humphrey J. Fisher.
- Olson, James S. *The Peoples of Africa: An Ethnohistorical Dictionary*, Greenwood Press, 1996.
- Pesce, Angelo. *Gemini Space Photographs of Libya and Tibesti*. Petroleum Exploration Society of Libya, Tripoli, 1969.
- Reclus, Élisée. *The Earth and Its Inhabitants, Africa, (I), North-East Africa*. Edited by: A. H. Keane. New York, D. Appleton and Company. 1892.
- Reclus, Élisée. *The Earth and Its Inhabitants, Africa (II), North-West Africa*. Edited by: A. H. Keane. New York, D. Appleton and Company. 1892.

(ب) الدوريات

- كول، بيتر. **فوضى خطوط الحدود**، مَجلة شئون دولية، العدد الأول، ربيع ٢٠١٣م، دار تانيت للنشر والدراسات، طرابلس، ليبيا.
- المحجوب، عبد المنعم. **لسان التُّبُو (تِدَكا) الحلقة الوسطى بين الأفروآسيوية والنيلية الصحراوية – دراسة تأثيلية**. مَجلة عجمان للدراسات والبحوث، المجلد الحادي عشر، العدد الثاني، ٢٠١٢م.

(ج) الأرشيف الشخصي

- لقاءات وحوارات خاصة أجراها المؤلف مع قبائل التُّبُو عامي ٢٠٠٩ و٢٠١٠م.

هنـــداوي